LOYALTY OF JINN

designe by:Ramadan Selmy

وفاء الجن

رواية قصيرة

NOVELETTE

رمضان سلمي برقي

RAMADAN SELMY

وفاء الجن

رواية قصيرة

رمضان سلمي برقي

1

في محطة مصر ..

الساعة الكبيرة المعلقة بأحد أعمدة الرصيف "١١" تقترب عقاربها من الثانية عشرة صباحاً، ولج القطار الرصيف، نفخ بوقه فاهتزت قلوب منتظريه، وانتفض الجميع بحقائبهم وأمتعتهم، هرعوا لاحتلال المقاعد بعد أن أرهقتهم ثلاجة الجو وبرودته على مصاطب الانتظار..

بدت عربات القطار الممتاز متربة معفرة، وبدا معظم زجاج نوافذه مهشم، وهيكله الخارجي الأزرق قد تآكل من الصدأ..

قفز شاباً تجاوز العشرين من العمر حاملاً حقيبته السوداء على كتفه، ولج القطار قبل أن يتحرك بدقائق؛ دلف بالطرقة يبحث عن مقعد مناسب بجانب نافذة زجاجها سليم، ولما وجده خلع حقيبته، وضعها على الرف المعدني بالأعلى وجلس، كانت الثلاثة مقاعد حوله شاغرة، غمغم: الحمد لله ليس هناك ازدحام؛ إن الشتاء هذا العام شديد صعيب!.

من مقربة؛ بدا أنه شاب يقترب من الخمسة والعشرين من عمره، عيناه سوداوتان؛ قمحي البشرة، معتدل القامة، عريض الصدر، مرتدياً سروالاً أزرقاً، ومعطفاً أسوداً ثقيلاً وقد دفن رأسه بداخل برنسه..

تحرك القطار، وسرعان ما خبَتْ أنوار الرصيف، وحل الظلام، وقيِدت أنوار القطار البيضاء، وانبعثت بوهن من سقفه من مصابيع متهالكة، تتقطع حيناً وتستمر حيناً..

أشعل سيجارة، أخرج هاتفه اللوحي، لمس عدة قوائم حتى ظهرت صورة لوجه فتاة، ساد الصمت إلا من ضجيج احتكاك العجلات بالقضبان، وأزيز المكابح.

نظر إلى الصورة، فبدا وجهها أبيضاً وضاءً؛ يعلوه هلالي حاجبيها المرسومين بحرفية، وأسفلهما عينين واسعتين سوداوتين، ينسدل من بينهما أنف لا هو صغير ولا هو كبير، وفي نهايته شفتين عنابيتين، وتلف رأسها بطرحة سوداء لم تمنع تدلي خصلة شعر سوداء ناعمة فوق خدها الأسيل برقة ..

قرب الصورة بإصبعيه، فتجلت عينيها، سحب نفس دخان عميق من سيجارته، وشرد سابحاً في بحر عينيها، تطاير الدخان من فمه إلى أعلى، زفر بضيق، سأل عينيها :ابنة عمي الغالية، ماذا دهاكِ؟ كيف تفسدين مستقبلنا ولأي سبب نكثتِ خطبتنا ونقضتِ عهودنا؟ تعلمين جيداً أني أحبكِ، وأنا أعلم حق اليقين أنكِ تحبينني، إذا ما الذي جد وطرأ لكي تهدمين كل شيء بين ليلة وضحاها؟ أموت وأعرف ما كنهه السبب الذي جعلكِ تقررين الرحيل عني؟.

آب من شروده؛ أغلق هاتفه، أعاده لجيبه، لملم تلابيب معطفه جيداً، دفن كفيه بجيوبه، انكَمش بزاوية المقعد متأملاً الضباب الغارق في الظلام خارج زجاج النافذة، شد رحاله إلى الماضي، غدا يراجع ذكرياته، ويتفحصها..

تربيا معاً، وعاشا اللحظات حلوها ومرها معاً؛ جل فتيات القرية كن يعلمن عشقها له، وجل شباب القرية كانوا يعلمون عشقه لها، لم يبُح يوماً لأحدهم، لكنه إناء العشق الذي نضح بما فيه..!

كانا جالسين معاً وقت الغروب فوق جذع النخلة اليابس المسجى خلف داره. وقتذاك؛ كانت الشمس تتجهز للرحيل على مضض خلف أكمة النخيل البعيدة، بعد أن زركشت السماء بالشفق.

-الشمس ستغرب يا"دعاء!"

قالها، فكانت تستحِ وتطرق رأسها فيضحك ويمسك بكلتا كفيها الناعمتين ويلثمهما، ويأخذ برأسها على صدره بعدما يلثم خديها، عندئذ؛ تتململ، وتتفلتْ منه وتهب واقفةً، وتنظر إلى الشمس، تقول مبتسمة:

-الشمس غربت يا"ياسين"ويحر بي أن أغرب أنا أيضاً حتى لا يرانا أحد من شبابيك البيت نتناغى، ويمنعوننا من الجلوس معاً مرة أخرى!

ثم تجري بين حقول القمح الخضراء في جلبابها الأصفر الموشى بالورود؛ وكأنها الشمس تغرب عن أرضه وسط جنة خضراء..

ياسين؛ مات أبيه لمّا كان صغيراً، وترك له ولأخويه أرضاً، قام بايجارها ويعيش هو وأمه وأخوته الصغار من ريعها الوفير.

دعاء؛ ابنة عمه الوحيدة، تبقت له سنة دراسية واحدة بالجامعة ويتخرج، وبعدها يتزوج منها، ولكن لا يدري ما الذي حَمَل عمه على الاتصال به ليبلغه بأن دعاء قررت نكث الخطوبة التي استمرت ثلاث سنوات.!

تمتم:

- حتى هاتفها مُغلق... ما عدتُ أفهم شيئاً!.

دق جرس هاتفه اللوحي برنين عادي، تحرر من شروده وعاد لحرية واقعه، أجاب المتصل:

-مرحباً عمي"صالح".

-كيف حالك يا ولدي؟.

-أنا بخير، لقد ركبتُ قطار الثانية عشرة وقادم إليكم لننظر سوياً في أمر خطبتي من دعاء، وتداعيات قراركم المفاجئ عليَّ!

تنَهد عمه، قال:

-ياسين؟.

-نعم يا عمي!

-هناك شخص غيرك يعشق دعاء!

انتفض ياسين واقفاً، قال بحنق:

-ما هذا الهراء يا عمي !أنا بن أخيك وأنت تعلم قدر معزتي لها.!

التفت له بعض الركاب باستغراب، حدجهم، عادوا بأبصارهم حيث كانت، قال عمه:

-يا بني لن أستطيع منعها منه ...لقد هددنا بقتلها أوخطفها إن لم نوافق!

-عمي ماذا تقول! ؟ نحن عائلة لها ثِقلها ولا يجرأ أحداً أن يفعل معنا ماقلته، أقسمُ بالله أن أُفرغ ألف رصاصة في جسده وأظل واقفاً فوق رأسه حتى يتعفن أو تأكله الكلاب، ولو ...

قاطعه عمه قائلاً:

-لن يؤثر به رصاصي أو رصاصك، قضي الأمر يا ياسين!

-أيه! ماذا دهاك ياعمي؟ كيف لا يؤثر به الرصاص، أهو حديد؟.

صمت عمه لحظات، سأله ياسين:

-من هو يا عمي أجبني أرجوك؟ من أي عائلة هذا العلق؟.

-إنه!

- إنه ماذا؟ ماكنهه ذاك العلق أجبني؟.

- جني ياولدي... ملك من ملوك الجان!.

***

اقترب القطار من محطته المنشودة، كان ياسين جالس مكفهر الوجه، يستعيد بتأفف وحزن ما أخبره به عمه صالح عن عاشق دعاء من الجن؛ لا يصدق، ولم يصدق يوماً ما بمثل تلك الخرافات، فقد سمع كثيراً عن فتيات اُختطفن من قريته ومن قرى مجاورة، واتُهم الجن فيها زوراً، ولكنه واقعي؛ كان دائماً يوجد أسباباً لكبح جماح عقله حتى لا يشرد منه، ويصدق مثل تلك الترهات .

قال ياسين ذات مرة لصديقه" عامر "عندما حكى له عن اختفاء فتاة من أكبر عائلات القرية :ربما كانت على علاقة محرمة مع شاب وهتك عرضها، ولمَّا اكتشف أهلها ذلك قتلوها واصطنعوا تلك الإشاعة لرأب العضيهة والنأي عن الفضيحة.

هكذا كان لا يسمح لخياله أن يفارقه إلى منطقة يجهلها، تمتم بصوت محشرج:

-أحمدُ الله أن دعاء لازالت على عهدها بي، وماحدث - والذي لا أصدقه - شيء عن غير رضاها، وربما عند وصولي يجد جديد!

أخرج هاتفه، فتح الاتصال بشبكة الإنترنت، كتب في خانة البحث" عاشق من الجن "وراح يفتُش بين نتائج البحث حتى لفَت نظره ذلك العنوان "عاشق من الجحيم "فولج تلك الصفحة، فإذا بها قصة تتحدث عن عشق جني لإنسية، تمتم:

-قصة !لا توجد حقائق.!

تصفح القصة سريعاً، فوجد من بين سطورها؛ أن الجني كان يضاجع الإنسية رغماً عنها، قال بتأفف:

-كذب ...هراء!

تخيل لوهلة أن دعاء في أحضان ذلك الجني؛ أصابته رجفة، أغلق الهاتف، صار مذهولاً مشوشاً، خائفاً على حبيبته، تمتم:

-ماذا لو كان الخبر حقيقة ؟ ماذا عساي أن أفعل لذلك الجني؟.

صمت فينة، اقشعر بدنه، أحس بأن هناك عيناً ما تراقبه، زادت ضربات قلبه، تصبب عرقاً، تمتم:

-أعوذُ بالله من الشيطان الرجيم!

ازدرد ريقه، تمالك نفسه، هب واقفاً، نظر حوله وجد العربة شبه خالية من الركاب، والموجودون كلهم نائمون؛ جلس مرة أخرى، قال في نفسه: كأني لمحتُ شخصاً متشحاً بالسواد؛ واقفاً بالدهليز المظلم بين العربتين؛ وكان محملقاً إلي بعينن واسعتان مضيئتان، هما أوضح مايظهر منه.

مرقت في بدنه من أسفله إلى أعلاه؛ قشعريرة أخرى أشد وطأة!.

استعاذ بالله من الشيطان، تمتم:

-سأقف مرة أخرى، وأنظر هناك لأطمئن نفسي بأنها مجرد خيالات!

وقف فجأة، أرسل بصره إلى الممر بين العربتان؛ لم ير شيئاً؛ تنفس بأريحية، جلس مكانه شارداً..

مر الوقت، اقتربت الساعة من السادسة صباحاً، مر بائع الشاي، اشترى قدحاً، أشعل سيجارة.

-سأحاربه بالإيمان!

قالها ممتعضاً والدخان يتطاير من فاه، ثم التزم الصمت..

****

توقف القطار بالمحطة؛ قفز ياسين، وقف على الرصيف، بدا الرصيف شبه خال من المسافرين، والمصاطب غارقة بين طبقات الضباب؛ أخرج نظارة سوداء من الحقيبة، لبسها ليداري إحمرار عينيه من الغضب، ومن مجافاة النوم طيلة

الليلة المنقضية بالقطار .دلف صوب بوابة الخروج، تحرك القطار من خلفه. خرج، لوح للحافلة التي ستنقله إلى موقف السيارات حيث سيارات قريته..

****

اِنطلقَت السيارة تشق طريقها بين حقول القمح الخضراء، وأشجار النخيل السامق؛ تجتاز الجسور فوق الترع، وتشق الضباب القابع على بعض الطرقات، تتمهل أحياناً لضعف الرؤية، وتسرع أحياناً، وياسين جالساً مكموداً بليداً؛ لم يتأمل كعادته الحقول والنخيل بشغف خارج زجاج السيارة، بل كان يدعوا الله بالشفاء لدعاء..

2

- حمداً لله على سلامتك ياولدي.

قالتها أمه بعدما فتَحَت له الباب، ودثرته بأحضانها لحظات، وبعدما انفكت عنه، وعن مقربة؛ بدَت امرأة في العقد الخامس من العمر؛ ريانة الوجه وإن طالته بعض تجاعيد الكبر، متشحة بجلباب أسود، تلفُ رأسها بشال أزرق؛ تطل من أسفله خصلات شعر تمكن الشيب منها فكساها ببياضه..

-ماذا حدث لدعاء يا أمي؟.

رمقته بنظرة حزينة، قالت:

-اِلتقط أنفاسك أولا من مشقة السفر واجلس يا ولدي ؟ .

وضع حقيبته، خلع حذاءه ونظارته، تربَع على كنبة بباحة البيت، زفر قائلاً:

-لم تعد بي أنفاس يا أمي، أنت تعلمين قدر معزتي لها، وما سمعته عنها قضّ مضاجعي!

دخلَتْ أمه المطبخ، أضاءت المصباح، صاحت:

-ابعد الله عنك الغم والهم يا حبيبي، ان شاء الله سيفرجها ربك من عنده ويفك الكرب.

-لم تجاوبينني عن سؤالي ؟.

-أُجهز لك لقمة تقوِّت بها بدنك أولاً، وبعد ذلك سأحكِ لك عن كل ما أعرفه.

-أعطاكِ الله الصحة والعافية...

****

دخل ياسين غرفته، مدد جسمه فوق السرير، طرح قذاله فوق الوسادة، تدثر باللحاف، ثبَتْ نظره صوب السقف شارداً.

وهل سيغمض لي جفن يا أمي دون أن أطمئن عليها؟.

دمعَت عينيه شوقاً؛ تذكر كلام أُمه: دعاء عشقها جني ياياسين، وتلبسها، وأتوا لها بمعالجين ورقاة وأحداً لم يستطع إخراجه وإبعاده عنها.!

زفر ضجراً: مسكينة يادعاء ...ومسكين أنا .!لمّا قال لأمه أنه يريد أن يذهب الآن لدار عمه، أجابته: دعاء في غرفة

منعزلة، وممنوع دخولها لأي شخص، خصوصاً أنت، لا يدخل لها سوى أمها، فقد تم تحصينها وقراءة الحرز عليها. وقالت له أيضاً :قريباً سيأتي شيخ من القاهرة، يقولون أنه بارع، وربنا يجعل الشفاء على يديه .

تقلب ياسين على جنبيه؛ وكأنما يتقلب فوق جمر متقد.

يارب يا أماه. ولكنه عاد ليركز على جملة من كلام أمه متسائلاً: لماذا أنا بالذات اختصوني بالبعد عنها؟ هل الجن - إن كان ماقيل حقيقة - يغار مني؟ ولكن هي حبيبتي أنا! أنا الخليق بالغيرة والجزع.!

وبعد صراع مع الشرود والتفكير والحيرة؛ راح في غياهب النوم رغماً عنه..

***

وسط طبقات ظلام متراكبة؛ ركضَ ياسين لاهثاً بمنامته صوب دار عمه، فوق طريق ترابي مجدور بحفر ملؤها ماء يتطاير من تحت قدميه.. لاحت الدار من بعيد كسفينة تغرق في موج ظلام هائج، ولمّا وصل الدار؛ بدَت له مشيدة من

طابقين من الآجر، متطرفة بين الحقول؛ محفوفة بسور قصير من الطوب النيء وتتحلقه أشجار النبق.

نادى بصوت متهدج من البرودة والتعب:

-يا عم صالح؟.

أعاد النداء غير مرة دونما إجابة، هزيز ريح انطلق فجأة ليدغدغ سكينة الليل، حفيف أشجار النبق شعَر بأنه فحيح أفاعي. نقيق الضفادع وصرير جراد الحقول يزدادان ويتضخمان وكأن جيوشاً منهما احتلت القرية. اقترب من البوابة الخشبية الكبيرة؛ هم بطرقها، وجدها مفتوحة: كيف يتركون بوابة الفناء مفتوحة دونما مزلاجاً في ساعة متأخرة كهذه؟. تساءل بها في نفسه، ثم دلف إلى الفناء، وصل باب الدار؛ وجده مفتوحاً أيضاً، ولج باحة الدار، وجدها مظلمة، وضع يده بجيبه يتحسس الهاتف، تمتم:

- نسيته بالدار!.

أخرج قداحة، أشعلها، وراح يتفحص المكان من حوله.

سمع هسيساً بغرفة على يمينه :لعلها غرفة دعاء .!قالها في نفسه ثم اقترب من الغرفة، دفع الباب؛ وجده مفتوحاً، دخل

الغرفة؛ انقطع الهسيس، تفحصها؛ بدت شاغرة؛ ارتجف؛ شعر بلوح جليد يتفتت فوق ظهره، قال ساخطاً:

-أقسم بالله الصوت كان هنا!

عاد أدراجه، خرج من الغرفة إلى باحة الدار؛ انطفأت القداحة، زفر ضجراً:

-هل هذا وقته؟.

عاد الهسيس لأذنه تارة أخرى، لكن هذه المرة قادماً من غرفة أخرى؛ انتفض ياسين، اقشعر جسمه، أشعل القداحة مرتجفاً، استدار وفجأة؛ جفل مطلقاً صرخة خوف، وقعت منه القداحة فانطفأت، وسقط على جنبه أرضاً يرتجف من هول ما رأى؛ مخلوق أسود وجده واقفاً أمامه، لا تبين منه إلا رأس ضخم كرأس غوريلا، وعينان مشقوقتان بطول الوجه بارزتان من محجريهما، وفم واسع تبرز منه أنياب طويلة كأنياب الأفعى..

عُقد لسانه، حاول أن يستعيذ بالله من هذا المخلوق؛ لم يستطع، فغر فاه ولم يستطع حتى إغلاقه وكأن شللاً كاملاً تمكن من جسده.

مرت لحظات حتى سال لعابه، وفجأة؛ أُشعِلت القداحة من خلفه؛ تحرك ضوء القداحة على الجدار صوب ياسين، وظهر ظل يد ذات مخالب طويلة تقبضها، تبعه ظل رأس ضخم ذا أنياب بارزة، وكلما اقترب الضوء؛ ازدادت رجفاته حتى صار كمن تمكن منه تيار كهربائي شديد، وفجأة؛ توقف الضوء فوق رأسه، وتحركت يد سوداء ضخمة مشعرة ذات مخالب طويلة صوب رأسه، وسمع صوتاً مجلجلاً يناديه:

-ياسين استيقظ يا ولدي ..لقد أُذِن للعصر وما زلت نائماً..ياسين، استيقظ يا ولدي؟.

عندها قفز مستيقظاً متفحصاً المكان من حوله مستعيذاً بالله مما رأى، وبعدما أدرك ما حوله، تمتم:

-إذاً فهو كابوساً مُرعباً - ثم صائحاً - اِستيقظتُ يا أمي.!

***

طُرق الباب بطرقات متسارعة، فتحت أم ياسين على عَجَل.

-حمدلله على سلامتك يا صديقي.

قالها - بعد دخوله - شاباً اجتاز العشرين من العمر؛ قصير القامة، ممتلئ الجسم، ريان الوجه؛ مرتدياً جلباباً فضفاضاً. كان ياسين جالساً على الكنبة بباحة الدار، مرتدياً جلبابه، ومشعلاً سيجارته، يدخنها شارد الذهن، ولمَّا رآه هبط أرضاً، ابتسم محيياً:

-عامر... اشتقتُ لك ياصديقي؟.

وأخذه بين ذراعيه..

****

دخلا الصديقان مسجداً صغيراً على حافة الطريق مكلسة جدرانه من الخارج، وتعلوه قبة خضراء وبلا مآذن.

ولجا المصلى فبدت جدرانه مطلية باللون الأبيض، وأرضيته مفروشة بالبسط الخضراء، ومنبره من الخشب الزان بني اللون، وبدا خالٍ من المصلين لانقضاء صلاة الجماعة تواً.

وقفا بجوار بعضهما البعض في خشوع بين عمودي المسجد المتباعدين، زقزقة الزرازير المتشبثة بقضبان الشبابيك يتردد صداها بالداخل، رفع عامر كفيه بمحاذاة أذنيه.

- الله أكبر..

نوى به الصلاة، وفي سجدته، دعا ياسين ربه قائلاً:

- اللهم ارفع البلاء عن ابنة عمي، واتمِم زواجنا بخير..

****

اجتازا الصديقان القنطرة الخرسانية ذات الأقواس المشيدة فوق الترعة الكبيرة، التي تقسم القرية إلى شطرين؛ جلسا بجانب بعضهما البعض فوق جذع نخلة يابِس مسجى على حافة التُرعة من الجهة الأخرى، وراح ياسين يتأمل المارة في جلابيبهم الفضفاضة، والدواب المحملة بالحشائش، على حافة الترعة المقابلة شارداً، وبدأ عامر يثرثر، ومن خلفهما طريق ترابي، ومن خلفه حقول قمح شاسعة؛ تتناثر خلالها البيوت بعشوائية..

كان عامر مايزال يثرثر، ولمّا لاحظ أن ياسين غير منتبه؛ قال:

-افتقدنا دخانك ياصديق؟ .

لم ينطِق ياسين حرفاً، وضَع عامر يده على كتفه، صاح:

-ياسين !

عندها أفاق من شروده، وابتسم له بتجهُم، أنزل عامر يده، قال بصوت خفيض:

-إشعل لنا سيجارتين من سجائر مصر؟.

ولما تطاير الدخان من حولهما، قال ياسين بمرارة:

-ما الحل ياصاح؟.

أشاح عامر بوجهه صوب أقواس القنطرة يتأملها قائلاً:

-إن شاء الله سنجدُ حل، أنا لدي خلفية ما في التعامل مع الجن لا تعدوا بعض الكتب المتداولة، لكن العارض الذي أصاب دعاء قوي جداً وابن ملوك !

نظر له ياسين باستغراب، سأله:

-هل هناك فرق بين جني عادي وآخر بن ملوك؟ وكيف عَرَفت هذه المعلومة؟ لقد حكَت لي أمي عمّا تعرفه، لكنها لم تذكر لي تلك التفصيلة!.

عاد عامر بوجهه إلى ياسين، قال:

-أُمك لا تجد شغفاً في أن تخوض في مثل تلك الأحاديث، أما أنا فقد عرفتُ من بيت عمك، ومن بعض أهل القرية، لا شيء يخفى هنا يا صاح، الثرثرة سمة القرية وخاصة إن كانت أمور خارقة، فتظل فرصة للجميع، كل شخص يدلي بدلوه وينقص ويزيد أنى شاء!

ثم نظر عامر أمامه، صمت لحظات، وعينا ياسين تائهتين في كل مكان، ثم عاد وقال:

-هناك فرق كبير بين الجني العادي وبين الملوك وأبناءها الذين تحت أيديهم آلافاً من قبائل الجن يأتمرون بأمرهم، لكن لا عليك ياصديقي الله أكبر من الجميع ...يقولون أن الشيخ القادم من القاهرة اليوم؛ خبير مُتمرس، وتحت يده جن أقوياء يأتمرون لأمره ...

قاطعه ياسين بيده، حدجه قائلاً:

-مهلاً مهلاً... أليس تسخير الجان هذا سِحر؟.

-لا أعلم ولكنه لا يعمل إلا في الخير وعلاج البشر المضرورين من الشياطين والجن الأشرار، كما يقولون عنه!

-وهل هذا يحل له أن يُسَخِر الجن؟.

اِبتسم عامر قائلاً:

-في جسدُ المرأة عورة لابد من سترها، بيد أنـها تتعرى أمام الطبيب للعلاج، ولدَفع المضرة" الضرورات تُبيح المحظورات "ياصديقي!

-لا تفتِ أرجوك ياعامر؟ فأنت أيضاً لابد أن تتوقف عن قراءة تلك الكتب؟.

- لن أتوقف ياصديقي، فلدي شغف للتعرف بعالم الجن ذلك اللغز المُحير للبشر.

-لك ماشئت، فأنا لم أعُد أكترث لشيء سوى شفاء دعاء - ثم مستطرداً - صحيح؛ لقد رأيتُ كابوساً مرعباً الليلة!.

-احكنيه؟.

حكاه له كاملاً، حينئذ؛ وقف عامر، قال:

-هيا لنذهب إلى بيت عمك؟.

نـهَض ياسين يستجمعُ تلابيب جلبابه وذيوله قائلاً:

-ألن تقول لي ما معناه ياخبير؟ .

سبقه عامر متمتماً:

-أأكذُب عليك وأقول أني أُفسر الأحلام؟ ولكنه خير إن شاء الله ...هيا؟.

***

وصلا الصديقان الى دار الحاج صالح؛ طرق ياسين البوابة، فتح لهم الحاج صالح؛ تأمله ياسين فبدا له وكأنه كبر عشرات السنين، بيد أنه بالعقد الخامس، كث اللحية بيضاءها، جَعِد الوجه، أصلعُ الرأس، هزيل الجسم، متوسط القامة، يرتدي جلباباً مُحكماً على جسمه النحيف. سلَم عليه وتعانقا ففاضت عينيهما بالدمع، ثم سلم على عامر، ومن ثم دلفوا إلى الفِناء، وتركوا البوابة مفتوحة.

ولمّا وصلوا المنظرة، دخلوا جميعاً. كانت المنظرة غرفة كبيرة عن يمين الدار؛ لها باب على الفناء مفتوح وباب صغير موصد مفضٍ إلى داخل الدار .جلسوا جميعاً، كفكف الحاج صالح وياسين دمعهما، قال العم صالح بصوت شجي:

-كيف تسير أمور دراستك ياياسين؟ .

كان ياسين شارداً ينظر إلى الباب الصغير المؤدي لداخل الدار تارة وإلى الباب الخارجي تارة أخرى، فأعاد عمه عليه السؤال فانتبه وأجابه بصوت متهدج، قال:

-الحمدُ لله.

-أدام الله حمدك يا ابن أخي.

ثم أطرق ياسين رأسه قليلاً ثم رفعها قائلاً:

-أريد أن أرى دعاء ياعم أرجوك ؟ .

بهَت وجه عمه ونظر إلى عامر، ثم نظر إلى ياسين تارة أخرى، ولمعَت بعينيه الدموع، قال:

-الحقيقة يا بني هي في غرفة منعزلة لا أحد يدخلها سوى أمها !

فجأة؛ صُفِق باب المنظرة الخارجي فأُغلِق، وأظلمَتْ المنظرة، وتحرك مزلاج الباب الصغير الداخلي وفتح دون أن يظهر أحد، وساد صمت وذهول مما يحدث ..

انتفض عامر واقفاً قال:

-انهم الجن ...قد حضروا !أنا أشعر بهم .!

عندها سقط ياسين أرضاً يرتجف وتصتك أسنانه ويرتعشا جفناه. وصالح جالس جاحظ العينين منوماً لا يعي الواقع من حوله. لحظات وسُمع هسيساً قادماً من الداخل؛ اقترب عامر من ياسين؛ نزل على ركبتيه؛ وضع يده على جبينه ثم بدأ يغمغم قارئاً عليه بكلمات مبهمة، وسَمِع وقع أقدام آتية من داخل الدار صوب الباب الصغير، فاجتهَد بالقراءة فبدأ ياسين يستفيق رويداً رويداً، ويقترب وقع الأقدام أكثر فأكثر، وعندما قارب عامر على الانتهاء سَمع صرير الباب الصغير الذي بدأ يتأرجح كأن يداً تقبضه من الداخل وتتلاعب به، فانتهى من القراءة، فاستفاق ياسين؛ توقف صرير الباب.

نهض ياسين بثقل، ومايزال عمه كالمنوم..

فجأة؛ توقف الهسيس، سُمع صرير الباب، نظر ياسين صوبه، فظهرت دعاء من خلفه؛ وقفَت صامتة لا تتحدث، مرتدية عباءتها السوداء الفضفاضة، وشعرها دون غطاء مبعثر فوق وجهها الشاحب وكتفيها كالموج الهائج. هشَتْ تقاسيم ياسين لرؤيتها؛ تحرك ناحيتها، مدَتْ له يديها في صمت، وما إن اقترب منها حتى صرخ به عامر:

-توقف ماذا تفعل؟ .

توقف ياسين، استدار، حدج عامر باستغراب، قال:

-ما خطبك ألا ترى دعاء؟ ها هي قد جاءت بنفسها لتسلم علي؟.

-أنا لا أرى أحداً! توقف لا تلامس من تظنها دعاء؟ إنها من الجن !لا تقترب منها حتى لا تهلك ؟.

تعجَب ياسين من قول عامر، تمتم:

-سلامة نظرك ياعامر إنها دعاء، لابد أن كتب السحر والجن أتلفَت عقلك - ثم نظر إلى دعاء مبتسماً - سأسلمُ عليها وأُقَبِّل يديها وأضمها إلى صدري لحظات قبل أن يستفيق عمي!

تضايق عامر أكثر، واحمَرَّ وجهه، قال زاعقاً:

-ما الذي تقوله يا ياسين؟ أرجوك توقف أنت تحت تأثير سِحرها وهي تستقطبك إليها، توقف؟.

لم يأبه ياسين واقترب منها، وهم بمسك يديها، فذابت في الهواء كالدخان، عندها جَفَل ياسين واندهش وعاد أدراجه، جلس، تمتم بشرود:

-لقد اختفت !

قال عامر بارتياح:

-هذا ما حذرتك منه؛ لقد أصبح بيت عمك مكتظ بالجن !

فجأة؛ انغلق الباب الداخلي، فزع الصديقان، وفُتح الباب الخارجي، وعاد النور يملأ المنظرة، وسُمعتْ همهمات تقترب..

-السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؟.

قالها رجلاً واقفاً على الباب بالخارج، أفاق الحاج صالح من نومته، نظر الجميع إلى مصدر الصوت؛ وجدوه رجلاً في العقد الخامس من العمر؛ واقفاً بالباب؛ طويل القامة، ممتليء الجسم، يرتدي جلباباً أسوداً، وعلى رأسه عمامة بيضاء، وعلى كتفه ملقاة عباءته البنية. تأملوا وجهه الأبيض الجعد، ولحيته البيضاء المشذبة فلم يعرفوه.

اقترب منهم، وبيده عصا ذات مقبض مثني يتوكأ عليها، وباليد الأخرى مسبحة طويلة غليظة الحبات. أجابوه:

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته!.

****

جلسوا جميعاً، وكلهم معلقة أعينهم بالشيخ "طايل" الجالس بينهم في المنظرة..

-إن التي رأيتها منذ قليل يا ياسين هي"الملكة"!

تعجب ياسين من قول الشيخ طايل، قال:

-أية ملكة تلك ياشيخ؟.

وزع الشيخ طايل نظره بين الجميع بالتساوي، قال:

-هي ملكة قبيلة من قبائل الجن الأسود، وهي أم للملك الذي تلبس دعاء، وهي ملكة قوية جداً، وهي رأس الفساد ولا تكل ولا تمل من إيذاء البشر، مملكتها في الجبل الشرقي بهذه القرية.

قال الحاج صالح شارداً:

-أتعرفون؛ مذ أن كنا صغاراً كنا نسمع من الكبار؛ أن الجبل الشرقي به منطقة مسكونة لا يستطيع البشر الاقتراب منها بعد المغرب، وكثيراً ما سمعنا أن من يمر بها ليلاً ختفي ولا يعود، كنا نظنها أساطير !

تذكر عامر شيئاً، قال:

-كنا نلعب ونحن أطفال، واقتربتُ ذات مرة من تلك المنطقة مع حلول الظلام، فرأيتُ رجالاً سوداً ملثمين منتشرين فوق الجبل؛ فأرجفتُ خيفة وعدتُ إلى القرية ركضاً، ولما حكيتُ لوالداي؛ نهراني وزجراني وأمراني بعدم الذهاب ناحية الجبل الشرقي مرة أخرى !

ابتسم الشيخ طايل قائلاً:

-هناك كهف بالجبل الشرقي لا يفتح إلا في ليلة محاق من كل شهر عربي، هذا الكهف به قبيلة الشر التي تحكمها تلك الملكة.

وجه ياسين سؤاله للشيخ قائلاً:

-كيف عرَفتْ جل تلك المعلومات يا شيخنا؟.

ابتسم الشيخ طايل، قال:

-لقد أرسلتُ سرايا من رجالي من الجن، وأكدوا لي ما قلته لكم، ليس هذا فقط بل أزيدكم بأن تلك الملكة تعشق رجال البشر، فكلما يحلوا لها العشق؛ تعشق رجلاً وتتلبسه، أو تعاشره؛ وتلهو به وتتمتع به حتى تخار قواه ويصبح بلا نفع لإنسية أو جنية؛ وقتئذ؛ تتركه، ولكن بعد أن تُلقي عليه لعنة الجنون ...هناك رجل من قريتكم كان عشيقها وهو حالياً مجذوب طليق بين الحقول، ينام بجانب كلاب الشوارع ويأكل من القمامة.

تفكر الحاج صالح ملياً، قال:

-راشد العبيط! أجل؛ راشد العبيط، رأيته أكثر من مرة سائحاً بشوارع القرية ليلاً، وتائهاً بين الحقول يحادث نفسه، وعندما سألتُ عنه قالوا أن عمره ثلاثين عاماً بيد أن هيأته المشعثة المغبرة توحي بأنه طاعن بالسن.!

قاطعه الشيخ طايل:

-أصَبت يا حاج صالح، هو ذاك!

قال الحاج صالح:

-قالوا أيضاً أنه تزوج من جنية تحت الأرض، ولمَّا سرقت شبابه طردته ودمرت عقله وصار مجذوباً.

قال ياسين في نفسه :ماذا أسمع وكأني بطل في إحدى الحكايات أو الأساطير!؟.

نظر له الشيخ طايل، ابتسم، قال:

-أنت البطل يا ياسين؟.

نقأ وجه ياسين، تعجب، سأل:

-لن أسألك كيف عرفتْ ما أفكر به، ولكني سأسألك؛ ماذا تقصد بأني أنا البطل؟.

-ما علمته الآن وأنا جالس معكم؛ أن الملكة أعجبت بك.. . هب ياسين واقفا، قاطعه، قال:

-ماذا تقول بالله عليك؟ أنا لن أترك دعاء مهما كان ولن أكن ضحية لجنية بلهاء، فلتذهب هي وابنها إلى الجحيم.!

وزع الشيخ طايل نظره عليهم جميعاً، قال:

-أولا؛ أعلموا أن جلستنا هذه مؤمنة، وحولنا كثير من رجالي من الجن، وهذا يعني أن حديثنا لن يصل للملكة إلا

عن طريق قرنائنا من الجن، لكني بفضل الله خدرتهم جميعاً - اندهش الجميع - ثانياً؛ سنراود الملكة عن خروج ابنها من جسد دعاء وبالمقابل تظفر بياسين عشيقاً لها!

انهد ياسين جالساً، ازدرد ريقه، قال بصوت متقطع:

-ألا يوجد حل آخر؟.

وزع الشيخ طايل نظراته على الجميع، قال:

-ليس هناك حل آخر؛ فبعد خروج ابن الملكة إن شاء الله، سنحصن جسد دعاء، أما أنت ياولدي فسنبحث لك عن خطة لنخلصك منها، ولكن لتكن على علم يا ياسين أن فرصة نجاتك منها ضئيلة. ..ما رأيك ؟.

قال ياسين بصوت محشرج:

-موافق... موافق أن أضحي بنفسي فداءً لابنة عمي!

شخَصتْ أبصار الجميع، قال الحاج صالح:

-أأكسب بنتي وأخسر ابن أخي، يا الله يا مفرج الكروب فرج كربنا!

قال عامر ممتعضاً:

-وما هي خطتك يا شيخ لانتشاله من براثن تلك الجنية؟.

-هناك احتمالان، أما الأول؛ فبعد ظفرها بياسين؛ نحاول خطف ابنها ونطالب بعودة ياسين بيد أن هذا جد صعب، ويحتاج لكتاب"السحر الأسود"وهذا الكتاب عندي ولكني أقسمتُ ألا أستخدمه فكله شرور، أما الاحتمال الآخر؛ أن يظل ياسين عشيقاً لها لمدة سنة أو عدة سنوات ثم تتخلص منه بسبب ضعف قوته، وتلقي عليه لعنة الجنون وتطرده بالخلاء، وعندها نبحث نحن عنه ونداويه، هذا كل ما في الأمر، فكروا ملياً وأنا بانتظار ردكم ؟.

****

بدا ياسين متربعاً على سريره، وبيده سيجارة قاربت على الانتهاء، وأمامه منفضة مكتظة بأعقاب السجائر، وسحابات الدخان تركض صوب النافذة المضيئة بنور الشمس للهروب من الغرفة المنتفخة بالدخان.

طيف دعاء وذكرياتها يحومان من حوله، قال لطيفها وعيناه تنزفان دمعهما:

ـ أحببتُكِ بصدق يا دعاء، وسأظل أحبكِ حتى نهاية المطاف، لذا سأضحي من أجلكِ بصدق وبرضا نفس، سأجعلها تتلبسني أو تعاشرني وتلهو بي، سأنزل معها تحت الأرض، أو أسكن معها الكواكب، سأتحمل السنين العجاف؛ من أجلكِ؛ فشفاؤكِ هو مرادي، وسأتمسك بالله وأترجاه أن يهبني الأمل... الأمل في اجتماعنا فقط هو الذي سيجعلني أواصل حياتي وأنا بعيداً عنكِ!.

***

بعد صلاة العشاء؛ جلسوا أربعتهم بالمنظرة، أُغلقت الأبواب والشبابيك، وعبقت أدخنة البخور ورائحة المسك سائر البيت، قال الشيخ طايل:

-اِعلم يا ياسين يا ولدي إن قدر الله لك النجاة فستنجوا حتى لو اجتمع ملوك الإنس والجن على هلاكك ستنجوا، لذا كن مؤمنا بالله حق الإيمان، فهو منجيك، وكن موقناً من داخلك أنك مافعلت ذلك إلا لدفع مضرة وشفاء مريضة هي ابنة عمك وإن شاء الله ستصبح زوجتك بعد عودتك سالماً؟.

تفلتت دمعات ياسين في صمت، ومن داخله لا يدري هل سيعود حقاً، أم سيهلك، ولكنه راضٍ عمَّا سيفعله. قام عامر وراح اليه، جلس بجواره، احتضنه بقوة، قال :

-سأفتقدك ياصديقي؟.

ثم عاد لجلسته، قال ياسين مخضل الخدين:

-ماذا سيحدث بعد؟ هل ستتلبسني وأظل في بيتي أم أسيح بالأزقة والطرقات أم أنزل تحت الأرض أم ماذا؟.

قال الشيخ طايل بمسحة حزن:

-أعلموا أنني لمَّا أرسلتُ إلى الملكة رُسلي من الجان وشرحتُ لها وأخذنا مواثيق المبادلة وعهودها هنالك جدَّ جديد!

سأله ياسين، قال:

-وما جديد ...المبادلة؟.

-طلبَت ياسين إلى كهفها، وقد اقتربَتْ ليلة المحاق التى سيذهب فيها ياسين ويسلم أمره لله تعالى، عندها سيُشَق الجبل فيدخل ياسين الكهف ويلتقي عاشقته.!

تمتم عامر:

-والله حرام !

ثم علا نحيبه، قام ياسين من مكانه، جلس بجانب عامر، قال بصوت خفيض:

" -الضرورات تبيح المحظورات "أما كان هذا قولك لي يا صاح، خلِك مؤمن بالله وقضائه، وحتماً سيفرجها من عنده.

ثم احتضنه وأدمعا الاثنان، وبعد لحظات انفك عنه واقترب من الشيخ طايل الجالس متربعاً على الدكة بجانب الحاج صالح، قال:

-لي رجاء أخير قبل الرحيل؟.

رد الشيخ طايل:

-أعرف طلبك... لكن قل لعمك فإن وافق فلك ما طلبت؟ .

استدار ياسين صوب عمه، أخذ يده وقبلها وقبل رأسه، ثم قال له:

-أريد أن أرى دعاء مرة أخيرة قبل الرحيل يا عم ؟.

قال الحاج صالح:

-لا تقل أخيرة؟ ستعُد إن شاء الله وستتزوجها يابن أخي، ولكن سَل الشيخ يهدئ من روعها لتدخل وتُسلم عليها ؟.

قال الشيخ طايل:

-لحظات وأطلب لك هدنة من الوقت لا يتدخل فيها ابن الملكة!

***

بدت دعاء نائمةً كحورية في مرقدها، شعرها مفروش فوق وسادتها، مدثرة بملاءة مزركشة بالورود، مغمضة العينين، شاحبة الوجه. فُتح الباب، دخل ياسين، أغلق الباب خلفه، وفي إضاءة الغرفة الواهنة؛ اقترب منها وجلس على كرسي خشبي بجانب رأسها، وراح يتأملها ويزرف دمعات متوهجة، مد يده ومسك بيدها؛ باسها، وظل ممسكاً بها متأملاً في وجهها، لربما كانت آخر مرة يراها بها .

فجأة؛ تململَتْ دعاء، فتحت عينيها بوهن، وجدته بجانبها، نظرَت إليه وابتسمت بوجع، قالت بصوت ناعم حزين متهدج:

-أتيتَ يا بن العم؟.

هم بمسح دموعه، فبادرت برفع يدها، وكفكفت له دموعه، قالت:

-لماذا تبكي يا ياسين؟.

-دموع الفرحة، لأنك بخير ولأني رأيتكِ.

-ألستُ غاضباً مني؟.

-ولما عساي أن أغضب!

-أما زلت تحبني يابن العم؟.

-وسأظل ...أُحبكِ!

-أدامك الله لي يابن العم!

صمت لحظة ثم قال:

-هل مازلتِ تحبينني أنتِ يا دعاء؟.

-كيف تسأل هذا السؤال؟.

-أقصدُ.. .هل ستسامحينني على أي شيء قد أفعله من أجلكِ ؟.

-وماذا ستفعل؟.

تلجلج ياسين، قال:

-سألثم خديكِ وأُقبِّلُ شفتيكِ؟.

ضحكت دعاء، صمتت؛ اقترب من شفتيها؛ أغمضت عينيها وسكرا في قبلة طويلة.

-هيا يا ياسين؟.

سمع أمها تناديه، عندها انفك عنها، واستقام، فتحت عينيها بوهن، مسكت يده، قالت:

-إلى أين أنت ذاهب ياحبيب؟.

نزلت دمعاته رغماً عنه، أجابها على مضض:

-إن شاء الله... سأعود قريباً.

ترك قلبه معها... ورحل!.

3

الليلة قمرها محاق، بردها شديد، ضبابها كثيف ملتف؛ لا تظهر من البيوت سوى أضواء مصابيح خابية بين الحقول، ونباح الكلاب لا ينتهي، وصرير الجراد وصراصير الحقول لا يتوقف.

أقبل ياسين على دار عمه مرتدياً جلباباً أسوداً، ولافاً رأسه بملحفة من الصوف .كان شارداً يتذكر دموع أمه وهو يودِعها .

قال لها أنه ذاهب لينقذ ابنة عمه، ويحضر دواءها، لم تجد أمه بد من مناهدته أو إثنائه عن الرحيل، عندها سلمَت أمرها لله ودَعَتْ له بالسداد والعودة سالماً..

وقف أمام بوابة بيت عمه، تمتم عابساً:

ـ مؤكد سيستجيب الله لدعاء أمي.!

فتحت زوجة عمه البوابة؛ بدت متشحة بالسواد، لا تبين معالمها من ظلمة الفناء. دخل المنظرة، وجد عمه والشيخ جالسان، سلم عليهما، جلس، قال الشيخ طايل:

-كن مؤمناً بالله، وتذكر جيداً يا ولدي؛ أن الجن لا تتجسد في أي صورة خلاف حقيقتها، إلا إذ تأكدتْ جيداً أنها بمأمن ومعزل عن أية يد تطالها، أو حجر يبطحها، فمتى تجسد الجن فقد تسعة وتسعين بالمائة من قوته، ومتى تشكل وصار له وجود مادي كان موته بلسعة نحلة أمر غير مستبعد، لكن خلك حذر فانتقامهم مميت، فمتى حاولت وفشلت ستكن في تعداد الموتى، لذا دع أمرك كله لله؟.

-حسبي الله ونعم الوكيل!

قالها ووجهه يقطر إصراراً وتحدياً..

***

في منتصف الليل؛ تضرجتْ السماء بغيومها، اشتعلت بالبرق، انطلق هزيم الرعد يفتت سكون القلوب، هبطت الأمطار بغزارة .

وصل ياسين إلى أطراف الجبل شرقي القرية، بدأ بتسلق الصخور، والماء منهمر عليه، والبرد شديد؛ صار يرتجف، يغمغم، يدعوا الله، حتى وصل لقمة الجبل..

بدأ يمشي بين برك محفورة بالصخر وقد امتلأت بمياه الأمطار، والبرق يضيء له طريقه من فينة لأخرى، حتى اقترب من وادٍ سحيق، بدأ بالنزول إلى بطن الوادي، وفجأة تعثر بحجر فوقع متدحرجاً حتى صدته صخرة ضخمة في بطن الوادي، فغشي عليه من الألم والتعب..

بعد لحظات أفاق، شعر بأن هناك دماءً تسيل من وجهه، ولم يجد ملحفته على رأسه، حاول النهوض، لكن الظلام يلفه من كل الاتجاهات؛ جلس لا يعرف ماذا يفعل؟ ومض سنا البرق فأضاء لوهلة ماحوله؛ فإذا بأكوام من هياكل عظمية لبشر مهشمة وأخرى سليمة، وأشلاء ورؤوس مفصولة عن أجسادها جاحظة العيون، وجثث بدت بملامح غريبة؛ فذ واقفاً من الرعب، وحاول الابتعاد ولكن عاود البرق ليضئ له فوجد نفسه بواد امتلأ بأكوام من رفاة البشر وأشلائهم، صرخ:

-إنه وادٍ للموت... يارب نجني؟!

تسارعت خفقات قلبه، خر جالساً ينتحب، يرتجف، احتضن ركبتيه، دفن رأسه في حجره، والأمطار تجلده بسياطها بلا رحمة، وشعر بأن ثيابه مضرجة بالطين والماء ..

فجأة؛ سمع قضقضةً وتهزم؛ رفع بصره؛ رأى أشباحاً تقبل صوبه في الظلام، برقَت السماء من جديد؛ وجد الحياة قد عادت لأشلاء البشر ورفاتهم، وكلهم قد نهضوا ويدلفون صوبه مزمجرين! هب ياسين واقفاً، والموتى يقتربون منه رويداً رويداً، ولكنه مبلس عاجز عن أية ردة فعل، حتى تحلقته الأشباح، فقابت منه قوسين أو أدنى؛ فأيقن بالهلاك.

فجأة؛ سمع خفق أجنحة قوي فوقه، ثم شعر بمخالب التقطته من كتفيه، ووجد نفسه يرتفع لأعلى؛ ذُهل وأحس أنه في حُلم؛ لقد نجا من الموت بأعجوبة، وربما ذاهب للموت أيضاً بنفس الأعجوبة التي نجته .

شعر بجسده يتخدر، وصار بلا حول ولا قوة، محلق بالهواء وغير محلق، لا يعرف أين وجهته، وراحت جفونه تُغلق فينة

وتُفتح فينة أخرى وكأنه رافض للموت متشبث بالحياة حتى أُغلقت تماماً!.

***

فتح ياسين عينيه؛ وجد نفسه جالساً أرضاً وظهره لصق صخرة ضخمة، وأمامه جبل شاهق صخوره سوداء .

لاحظ توقف المطر، وإضاءة خافتة بالكاد تظهر كنه الأشياء من حوله. نظر لنفسه؛ وجد ثيابه أصبحت أسمال بالية، وشعر بأطرافه وقد تجمدت من البرد القارس والأمطار، ما عادت به غير حدقتان تتحركان، وشهيق وزفير يتناوبان بصعوبة، عندها تذكر دعاء.

أتمنى من الله أن تكونِ قد شفيتِ يا دعاء. دعا بها من قلبه، ثم تساءل :ماذا لوسألت عني؟ بماذا سيجيبونها؟ هل سيقولون لها الحقيقة؟ أم سيخفونها عنها فتعتقد أنني تخليتُ عنها بسبب مرضها؟ .ضاق صدره؛ حاول النطق:

-رحماك يا الله؟.

فجأة؛ اهتز الجبل أمامه، ثم انشق فظهر كهف ذا بوابة صخرية عظيمة، مزينة بنقش لامرأة جميلة، على رأسها

تاج.. راح ياسين يشاهد مايحدث في ذهول :مؤكد أن هذا هو الكهف ...سجني!.

قالها في نفسه مُحبطاً..

اهتزت البوابة ثم اختفت، وأذ بأربع درجات سلم مؤدية الى مدخل كبير مظلم للكهف في باطن الجبل، خرجت منه سحابة دخان سوداء عمودية بسرعة فائقة؛ اقتربت من ياسين وغشيته كله، وشعر بجسمه يُرفع من فوق الأرض، فانقبض قلبه مهابةً، وشعر برغبة شديدة في النوم؛ أغمض عينيه، طارت به السحابة إلى داخل الكهف، ثم ظهرت البوابة الحجرية العظيمة مرة أخرى، ثم اهتز الجبل والتحم الفرج وكأن شيئاً لم يكن.!

4

بعد صلاة العشاء؛ كانا يجلسان معاً في المنظرة، قال الشيخ طايل:

-حمداً لله على سلامة ابنتك يا صالح.

بيد أن الحاج صالح بدت عليه علامات الحزن الشديد، حتى بعد أن شفا الله له ابنته دعاء.!

-ابن أخي ضاع ياشيخ !على ما تهنيني؟.

-خلك مؤمن بقضاء الله يا صالح، وأنا بعد عودتي إلى القاهرة سأحاول النبش عن كتاب السحر الأسود، وسأحاول قدر المستطاع استعادة ياسين.!

-متى ستسافر؟.

-بعد قليل إن شاء الله .

خيم الصمت والشرود على الاثنين.

-أين ياسين يا أبي؟.

كان سؤال دعاء بعدما دخلت الغرفة ترفل في جلبابها الأزرق الفضفاض، شاحبة الوجه، تتراقص الدمعات بمقلتيها، وتلحقها أمها المتشحة بالسواد، مرددة:

-يابنيتي تعالي، لقد قلت لكِ مراراً وتكراراً أنه سافر وسيعود قريباً!

اِلتفتت دعاء إلى أمها، قالت بضيق:

-هاتفه مغلق! وقلبي يحدثني أنه بخطر - ثم التفتت إلى الشيخ طايل - أنت الوحيد ياشيخ الذي سيقول لي الحقيقة، أرجوك أين ذهب ياسين؟ وهل هو بخير؟.

أطرق الشيخ لحظات، ثم نظر لها بعطف، قال:

-سأحكِ لكِ عن كل شيء ثم أرحلُ إلى بلادي .!

بهتا والديها، وأطرقا رأسيهما، وعادت الأم أدراجها داخل الدار، وتربعت دعاء على الأرض قدام الشيخ، وبدأ يقص عليها ما حدث مع ياسين..

****

-محطة القطار من فضلك؟.

قالها الشيخ طايل لسائق سيارة الأجرة بموقف سيارات القرية؛ بعد أن ركب السيارة .سأله السائق:

-أمشوار خاص ياشيخ؟.

-بلى... توكل على الله؟.

كان الشيخ عابس الوجه شارد الذهن، يفكر فيما حدث لياسين، وكيف انتهى، وكيف ضحى من أجل ابنة عمه بحياته، قال في نفسه: غريب أمر الحب هذا، الكل يضحي من أجله؛ أنس يضحي، جان يضحي!.

وبعد دقائق؛ انطلقت السيارة تشق ظلام الطرقات الترابية والمسفلتة، بين الحقول تارة، والصحاري تارة أخرى..

*****

مرتدياً جلبابه ومن فوقه معطفاً جلدياً، يقف "عامر" في غرفته، أمام صندوق خشبي كبير أخرجه تواً من أسفل سريره .جعل ينفض التراب عنه بخرقة قماش، وبعد أن انتهى؛ جلس متربعاً فوق السرير بجانب الصندوق .

فتحه وبدأ بإخراج كتب صفراء أوراقها تكاد تكون بالية، أخذ يتفحصها، كتاب تلو الآخر، فبدت عليه علامات الامتعاض، وزفر ضيقاً .نظر إلى كومة الكتب المسجاة على السرير، قال بضجر:

-ليست لكم أية قيمة !آخركم تحضير إحدى بنات إبليس للمضاجعة، أو تحضير جان لسؤاله عن ناتج ضرب خمساً في ست ...آه لو أني كنتُ أملك كتاب السحر الأسود الذي لدى الشيخ طايل؛ لكنت قد زلزلتُ الجبل فوق رأس الملكة بكهفها، وأخرجتُ صاحبي، ولكن للأسف لا أملك سوى تلك النفايات التي ينعتونها الجهلاء" كتب سحر "والله إن كتب السحر لا تباع ولا تشترى؛ كتب السحر الحقيقية عمرها آلاف السنين، والموجود منها مع البشر يعد على أصابع اليد، مثل كتاب الشيخ طايل... سأذهب لصنع كوباً ثقيلاً من الشاي، فما عدتُ أبصر أمامي..

فذ واقفاً، خرج من الغرفة، كانت عقارب الساعة المعلقة بالحائط تزحف تجاه الواحدة بعد منتصف الليل، كانت أسرته جميعها تغط في نوم عميق .

دخل المطبخ؛ شرع بصناعة كوب من الشاي المغلي، وبعد أن جهزه تناوله وعاد إلى غرفته، دخل الغرفة، جلس على السرير .بدأ بارتشاف الشاي، قال في نفسه :سأعيد تلك الكتب العديمة إلى صندوقها للأبد!.

وضع كوب الشاي على ترابيزة لصق السرير، نظر إلى الكتب الملقاة أمامه بتقزز، وفجأة؛ اِنتفَض واقفاً من الفزع، حملق جيداً إلى الكتب، دَعَك عينيه، حملق مرة أخرى، فتأكد أن ما يراه حقيقة.!

****

في غرفتها ليلاً؛ بدت دعاء مستلقية على السرير، مدثرة جسدها باللحاف عدا رأسها، شاردة الذهن، مخضلة الخدين، جاحظة العينين، نظرها مثبت إلى السقف المجصص، ولكن قلبها وعقلها هائمان في ياسين.

تشعر بأنها السبب في هلاكه، وفي ذات الوقت تشعر بأنه لم يهلك بل بخير وسيعود إليها .

تذكرت آخر مرة رأته بها، وتذكرت القشعريرة التي أحدثتها قبلته بجسدها، والخدر الذي طالها بعدها، تمنت لحظتها ألا

ينفك عنها أبداً، وأن تظل شفتاهما ملتحمتان، وليحدث ما يحدث في الكون من حولهم، وليغضب من يغضب، فسعادتها آنذاك كانت تستحق إغضاب الكون جميعاً، وأصغر جزء من سعادتها، كان يمكن إن وزعته على الكون جميعاً أن يصالحها، وتعم السعادة بالكون للأبد.

لو كانت تعلم أنه سيغيب عنها آنذاك، وسيحدث ما حدث، لشقت صدرها، وحبسته داخل قلبها، ومنعته من الرحيل، ولكن لم يكن باليد حيلة وقتذاك، ولم يكن بحوزتها سكيناً!.

"إن شاء الله سأعود قريباً"

هكذا قال لها، زفرت، تنهدت، تمتمت:

ـ لقد قدَّم المشيئة ولن يهلكه الله أبداً!.

سالت دمعاتها بتأنٍ، تمتمت:

ـ مشتاقة لك يا حبيبي؟.

وتوارى السقف خلف سيول من الدموع..

****

تعجَب عامر مما يرى أمامه بين الكتب :

- ياله من كتاب ضخم، ولكن من أين أتى؟ أنا لم أره من قبل ...يبد أنه كتاب سِحر قديم من الكتب التي تمنيتُ أن أمتلكها!.

مد يديه وحمله فوجده ضخم في حجم أربع كتب من كتبه؛ ثقيل مصنوع من جلود الحيوانات المدبوغة، وضعه على مكتبه الصغير، وجلس وهم بفتحه ليعرف ما كنهه.!

ولمّا رفع دفة الكتاب؛ انطفأت أنوار الغرفة تدريجياً، ووجد عامر نفسه في ظلام دامس، نظر إلى الكتاب فوجده مشع بنور مجهول المصدر .

شعر بأنه امتلك كتاباً ثميناً، وبدأ رأسه يضج بجلبة غريبة؛ أصوات شجار وصراخ تعلوا برأسه حتى شعر أنه سينفجر.!

ضغط بكفيه على رأسه، وأغمض عينيه، صرخ:

-هذا يكفي؟ !

عندها، توقفت الجلبة برأسه، سمع وقع أقدام تقترب من باب غرفته، قال في نفسه: لربما كان خادم الكتاب. صاح:

-قف مكانك؟.

عندها توقف الوقع خارج باب الغرفة.

نظر عامر بالكتاب، فوجد بالصفحة الأولى كلمات بالعربية، قرأها" :أتيتُ إليك لأنك تمنيت امتلاكي بصدق، وسأتركك إذا ما تمناني غيرك بصدق، لذا لا تخبر أحداً عن سري، فمتى تركتُك؛ قتلتُك ومات معك سري ."

أوجس خيفة من هذا التهديد الصريح، رفع بصره؛ حاول أن يستجمع تلابيب أفكاره، عاد ببصره ليقرأ؛ فوجد الصفحة خالية من أية كتابات، أدرك عندها أن الأمر جاد.

سمع طرقات ناعمة على باب غرفته، صاح من فوره:

-أدخل؟.

دخلت سيدة عارية، تأملها، فوجدها كأميرات الأساطير، أو كآلهة الجمال؛ طول فارع، خصر دقيق منحوت بحرفية، بياض مُشع، نهدين منتصبين مضبوطين مع تناسق جسمها، عينان واسعتان زرقاوتان، وأنف جميل، وشفتان بارزتان، ومن حولها هالة من نور، وشعرها أسود ناعم طويل ملامس لكعبيها.

لم يُطل في تأملها، انتفض واقفاً؛ تحرك صوبها، قالت بغنج:

-أُسترني؟.

تلعثم عامر، سألها:

-كيف ؟.

-في أحضانك ؟.

فتح ذراعيه كالمنوم؛ ارتمت على صدره، طوقته بذراعيها؛ أحس بصهد جسمها؛ غمرته اللذة، أغمض عينيه، ازداد صهدها وشعر بأنها تحترق! فتح عينيه؛ وجدها تتحول إلى نار ودخان يتخللان مسامات جسمه بألم حتى اختفت بداخله، عندها؛ شعر بأنه قوي، وفجأة؛ سمع صوت نسائي رقيق في أذنه، يقول:

-فلتجلس الآن أمام الكتاب لنعلمك كيفية استخدامه؟.

ضحك عامر، جلس أمام الكتاب؛ قلب أول صفحة؛ وجد كلمات موجهة إليه؛ قرأ" :لتكن على علم أن الجنية التي تلبستك الآن هي التي ستقوم بقتلك في حالة إفشائك سر هذا الكتاب، ثم تمناه أحداً غيرك بصدق."

عندئذ؛ تراجع عامر بجسده إلى الخلف؛ دمدم مرتجفاً:

ـ وامصيبتاه!.

شعر بشيء يتحرك على ساقيه، كشف عن ساقيه؛ وجد عشرات من عقارب صفراء مشعة بالظلام، تتسلقه بسرعة غريبة إلى أعلى مشرعة أذنابها وعلى أهبة الاستعداد للسع؛ سرَتْ بجسمه قشعريرة شديدة، وتصلب جسده، حاول التململ دونما فائدة؛ شعر بأنه محبوس داخل جسده؛ لم يعد قادراً على التنفس، دقات قلبه قاربت على التوقف، روحه تُقتلع من جسده بتأنِ..

لحظات واختفت الرسالة، فاختفت العقارب، وعادت أنوار الغرفة إلى الحياة؛ التقط عامر أنفاسه، أدرك أنه هالك لا مناص؛ تساءل: أترى أنا أول من يمتلك الكتاب أم أن هناك من امتلكه قبلي ومات؟ وما هي قدرات هذا الكتاب؟.

عندها سمع الصوت النسائي بإذنه، يقول:

-أما عن قدرات الكتاب فهي تتخطى كل حدود عقلك وتفكيرك، وستكتشفها بنفسك مع الوقت، أما مالك الكتاب السابق فهو الفقيد"طايل".

***

وصلت السيارة إلى محطة القطار، صاح السائق:

-لقد وصلنا المحطة ياشيخ، تفضل بالنزول؟.

لم يجد ثمة إجابة! استدار السائق لينظر خلفه؛ وجد الشيخ طايل جاحظ العينين، فاغر الفم، أزرق الوجه، لا ينطق بحرف.

نزل السائق سريعاً، فتح باب السيارة الجانبي ودخل، اقترب من الشيخ، مد يده يجسه؛ وجده جثة هامدة!.

نظر تحت قدمي جثة الشيخ؛ لمح عقرباً أصفر اللون شكله غريب عن شكل العقارب التي يعرفها، يختفي تحت مقاعد السيارة بسرعة غريبة، عندئذ؛ صرخ وتراجع سريعاً، نزل من السيارة، ركض صوب رجال الشرطة المتمركزون أمام المحطة مستنجداً:

- الحقوني... الشيخ قتلته العقارب... الشيخ قتلته العقارب!.

***

-ويلي.

قالها عامر مصدوماً، ثم أغلق الكتاب؛ فذ عنه مفزوعاً، مسك رأسه بين راحتيه، قال:

-الشيخ طايل في تعداد المفقودين ...يارباه !ليتني لم أتمنَ الكتاب، ليتني لم أتمناه، أنا من قتلته، لن أسامح نفسي، لن يسامحني الله، وربما يأتِ دوري وأموت تلك الموتة البشعة، يارب كن معي؟!.

عاد وجلس أمام الكتاب .

الموت بانتظاره، ماذا يفعل، لقد وقع المحظور، سيحاول أن يكتم السر ولا يبوح به لأحد لا يثق به، حتى إن حدث ومات، الموت ليس نهاية الأمور، وربه يعلم أنه لا ينوي فعل معصية به، بل خيراً سيفعل.

قال بإصرار:

-مادُمت قدري فلنفعل شيئاً مفيداً يستحق أن أموت لأجله؟!.

قلب الصفحة الأولى؛ وجد الباب الأول؛ عدة عناوين بعدة لغات، من بينهم العربية، وأسفلهم؛ أقسام مرصعة بأسماء

جن غريبة؛ كُتبت السطور بمداد أحمر يشبه الدم، وبريشة ذات خط عريض، ولمّا قرأهم اندهش.!

5

فتح ياسين عينيه؛ وجد نفسه منتصباً ومقيداً بأغلال حديدية إلى جدار صخري بمكان مظلم .حاول التحرك، حاول جذب الأغلال؛ خشخشت دونما فائدة؛ أخذ ينتحب.

بعد لحظات؛ سمع صوتاً أنثوياً عذباً بمقربة منه:

-أسهل شيء عندكم أيها البشر هو البكاء ...عزاؤكم وسلواكم وهروبكم من ضعفكم؟.

صمت، وراح يبحث بعينيه بين الظلام الحالك عن مصدر الصوت، ولكن دونما فائدة، حينئذ؛ أدرك أنها من الجن، قال حانقاً:

-نحن لسنا أقوياء مثلكم، لسنا ذوو قلوب متحجرة!

صدحت ضحكاتها المجلجلة، قالت:

-ظلمتنا أيها الآدمي الطيب!

صمت ياسين برهة ثم قال:

-الحب؛ هو ما ساقني إليكم، الحب؛ هو الذي أدخلني سجنكم بإرادتي، وبالطبعِ أنتِ وقومكِ لا تعرفون ثمة شيء عن الحب!

ضحكت ثانية فتردد صدى ضحكتها بقوة، قالت:

-لا تتحدث إلا عن نفسك أرجوك؟ لأنكم البشر لا تعرفون الحب؛ لستم من تحبون بصدق؛ نحن من نحب بصدق، ونحن من نضحي بصدق؟.

ضحك ياسين بصوت مرتفع، قال:

-واضح أنكم رقيقي القلوب، ومُرهفي المشاعر - ثم جذب الأغلال بقوة فأصدرت خشخشاتها - أغلال الحب، أليس كذلك؟.

ضحكت بغنج، قالت:

-بلى... أغلال الحب !نحن معشر الجن؛ لمَّا نعشق لا نتخلى عن معشوقنا تحت أي ظرف من الظروف، ولسنا مثلكم أنتم؛ تتحججون بألف حجة لتبرير التخلي عن أحبائكم، أما نحن فإن كان المعشوق من الجن أو البشر؛ سكنَّا في روحه وجسمه، سكنا في قلبه، سكنا في أوصاله، حتى لا نفارقه

أبداً، وصِرنا عينيه التي يرى بها، ولسانه الذي يتكلم به، وعقله الذي يفكر به، وإن كان ضعيفاً وهبناه قوتنا، وإن كان زليلاً أعزيناه، وإن كانت له أحلام حققناها... أليس هذا بحب حقيقي أيها الآدمي الضجر؟.

اغتاظ ياسين، صاح:

-أيتها الملاك - ثم بصوت هادئ - لولا أني مكبل بأغلال الحب لصفقتُ لكِ بحرارة حتى أدميتُ كفاي إعجاباً بأعمالكم الخيرية التى تقومون بها من أجل تحقيق أمنيات من تُحبون!

صمتتْ المتحدثة برهة ثم قالت:

-أن الملكة تحبك وتريدك زوجاً لها، فدع عنك ثرثرتك الفارغة، واستعد فإن ليلة دخلتك عليها اقتربت؟.

ثم ضحكت بغنج وابتعد صوتها، وران الصمت. اغتاظ ياسين، صرخ:

-أهكذا بسهولة قد قررتم؟.

عادت للحديث، همست بالقرب من أذنه بصوت كفحيح الأفاعي:

-مسكين أنت، بل وطيب أيضاً! هل تظن أنـها ستنتظرك؟.

-ماذا تقصدين؟.

-أقصد حبيبتك التي ضحيت من أجلها...

قاطعها ياسين:

-دعاء ستقدِّر ماقدمته لـها من تضحيات، إن عرفت الحقيقة، وستنتظرنـي!

ضحكت بسخرية، ابتعدت، قالت:

-ماتقوله كلام من كلام أفلامكم، وهذي من هذي رواياتكم، ومحض أحلام من عوالم أحلامكم؛ ولن تتحقق أبداً إلا في مخيلتك أيها الطيب... أنتم بشر خوانون؛ هذه قاعدة، وحتى إن شذت حبيبتك عن تلك القاعدة مثلك - ثم ضحكت بغنج - وانتظرتك؛ نحن لن نتركك إلا بعدما أن تصير فزاعة طيور، بمعنى؛ رجل بالاسم فقط، لا تستطيع أن تسعد امرأة ولو بلثمة على الخد، وحينئذ؛ هي من ستهرب منك - ثم ضحكت برقاعة - لأنه معلوم عندكم ماتريده المرأة من الرجل، ولا فائدة لامرأة برجل بالاسم فقط!.

-وملكتكِ ألا تريد ماتريده نساءنا؟.

- لا... نحن نعشق بصدق - ثم ضحكت بمياعة ودلع - ولا مانع من الأشياء الأخرى!.

تعالت ضحكاتها، صرخ بها:

-لماذا تفعلون بي ذلك؟.

-لأني أحبك!

صمت لحظات، قال بهدوء:

-من أنتِ؟.

-أنا الملكة!

-الملكة؟.

-بلى... الملكة ياحبيبي!

صمت ياسين برهة، قال:

-أيتها الملكة - ثم بصوت مرتفع - أنا أحب دعاء وأريد الرجوع إليها؟ .

اقترب صوتها، قالت:

-معشوقي البشري، لقد تعاهدنا من قبل؛ أنت مقابل حرية دعاء، وقد وافقت بمحض إرادتك أيها الطيب المغامر، لذا - ثم بصوت أجش مخيف - أوف بعهودك حتى لا أغضب عليك أنت وعائلتك؟.

تردد صدى صوتها بقوة في أرجاء الكهف مبتعداً حتى توقف وساد الصمت..

***

في ظلام دامس؛ صدحت ضحكة الملكة، تردد صداها، قالت:

- سأتخذه عشيقاً لي، ولا تحاول أن تؤذه مرة أخرى؟.

أجابها صوت رجالي غاضب:

- أمي... وعشيقتي الإنسية جعلتِنِي أتركها من أجل أن تظفرين بهذا الإنسي الضعيف؟!.

- لا تسبه وأخرجه من رأسك، وابحث لك عن إنسية غيرها؟ وما أكثرهن بالخارج!.

- حسناً... لكن كوني على علم بأنه لن يحبكِ أبداً؟.

- سيحبني!.

فُتحتا عينين كعيني القط، من بين طيات الظلام، وما لبثتا أن جحظتا ثم ضُيقتا ثانية، ثم أُغلقتا واختفيتا، وكأنهما عيني الظلام نفسه.

- سنرى... وإن صدق كلامي سأعاقبه بطريقتي!.

- اغرب عن وجهي الآن؟.

فُتحتا العينين ثانية، اتسعتا، واصابهما احمرار كالوهج.

- سأغرُب!.

ثم ذابتا في الظلام، وبعد ثوانٍ؛ فُتحتا عينينن أخريتين، كعيني الأفعى، ثم ضُيقتا وذابتا في الظلام..

***

لمحَ ياسين نوراً قادماً وسط الظلمة؛ راح يقترب رويداً رويداً حتى ظهرت امرأة طاغية الجمال، تحيطها هالة من نور، راح يتأملها باندهاش.

وجهها باسم مشع كقرص الشمس، عيناها واسعتان جريئتان مرسومتان بكحل عجيب، وشفتيها ممتلئتان مائلتان تقطران شهداً، وشعرها أحمر طويل ليس له نهاية، وفوق

رأسها يقبع تاجاً من الذهب مرصع بالألماظ، فارهة القامة، ملفوفة الخصر دقيقته، ترفل في فستان أبيض ضيق موشى بالذهب، يخشخش كلما تقدمت، عاري الكتفين؛ يظهر نصفي نهديها العلويين وفلقتهما؛ شعر ياسين لوهلة أنهما بالونتين رقيقتين ممتلئتين بالماء وعلى وشك الانفجار!.

بذراعيها الأبضين أساور من ذهب كلما تحركت تردد صدى رنينها بالكهف عجباً!.

ظل ياسين يتأمل تلك الجميلة مشدوهاً، وهي تقترب منه، حتى انتصبت على مقربة تتأمله بدورها، ثم ظهر من خلفها أربعة فتيات جميلات، شعورهن لاتتخطى عجيزاتهن؛ يرتدين فساتين بيضاء بأكمام، ويحملن فوق أيديهن أقمشة بيضاء نظيفة ومطبقة بعناية..

قالت الجميلة:

-أنا الملكة - تردد صدى الكلمة بالكهف وكأنه يصدر عن جوقة - أنا عروسك - ثم نظرت إلى وصيفاتها ثم إليه - ما رأيك في؟ - ثم بنعومة ودلع - أنا أجمل أم دعاء؟.

جحظتْ عيني ياسين، أحس بأنه سينطق ويقول لها "أنتِ" لكنه لم يطاوع نفسه؛ شعر أنه سِحر تمارسه عليه الملكة ليعلن حبه لها رغماً عنه، فآثر السكوت؛ طأطأ رأسه، ومنع لسانه من النطق .

اقتربت منه إحدى الوصيفات الأربع؛ وضَعت ما تحمله من أقمشة تحت قدميه، ثم وضعت يدها على قلبه فانتفض، قالت:

-أجب على الملكة حتى لا تهلك ؟.

رفع بصره، ونظر إليهن بتمعن وعيناه تلمعان من نورهن الأخاذ، قال:

-دعاء ....أجمل بكثير! ثم أطرق رأسه وصمت متسائلاً في نفسه عن كنه شجاعته هذه التي جعلته يتحدى سحرها... مؤكد هو الإيمان!. أجاب بها على نفسه، ثم غاب عن الوعي..

6

جلس عامر بجوار الحاج صالح، مُطرقاً رأسه، لا ينفرج فمه عن كلمة، ظل الحاج صالح يتأمله في صمت، قال:

-كيف حالك ياعامر؟.

صمت عامر، أشعل سيجارة، نهض، مسك بكوب الشاي، جلس بالدكة المقابلة للحاج صالح، نفض رماد سيجارته بمنفضة صغيرة فوق نمرقة بجواره، رفع بصره، قال:

-أريد أن أتزوج دعاء يا عم صالح ؟!

****

في غرفةٍ كبيرةٍ منحوتةٍ بالصخر، وسط إضاءة منبعثة بوهن من قناديل عُلِقت بالجدران؛ يجلسُ ياسين على كرسي خشبي كبير، مرتدياً منامة حريرية بيضاء، وقد بدا وجهه شاحب، وعيناه شاردتان، مستقبلاً مدخل الغرفة المظلم، وخلفه سرير في وسط الغرفة، مفروش بملاءات بيضاء، ووسائد نظيفة مرتبة .

فجأة؛ ظهرت بجانبه على منضدة وثيرة؛ علبة سجائر فاخرة، وقداحة ومنفضة من النحاس؛ ابتسم، تناول السجائر بلهفة، أشعل سيجارة، وجعل يتمطقها بشغف، ثم أسند قذاله إلى أعلى حافة الكرسي، وأغمض عينيه..

-أحضرتُ لك سجائرك كما تمنيت؛ كي تتأكد أننا لسنا وحوشاً كما تظنوننا، ولكننا محققو أمنيات!

فتح عينيه؛ لم يجد أحداً حوله !قال مبتسماً:

-شكراً لكِ أيتها الملكة الجميلة!

تعالت ضحكاتها، قالت:

-آلآن جميلة؟ أما كانت حبيبتك أجمل مني لما كنا بالقبو ليلتئذ؟.

صمت وصمتت الملكة، انتهت سيجارته، أخرج أخرى، التقمها، نظر فلم يجد القداحة، زفر حانقاً. فجأة؛ أُشعِلت ناراً أمام وجهه؛ انتفض فزعاً؛ كانت القداحة، سمع ضحكاتها؛ حلقت القداحة من حوله مشتعلة، ظل يراقبها بحذر، شعر بدوار، تعالت ضحكات الملكة، قال في نفسه :كم أكره مشاكسة من لا أراه .!

توقفت القداحة أمامه، واقتربت من سيجارته، فأشعلها، ثم انطفأت وعادت مكانها فوق المنضدة..

صدح صوت الملكة، قالت:

-سأريك نفسي على حقيقتي، لتحكم مرة أخرى؛ هل أنا جميلة حقاً كما قلت آنفاً أم لا؟.

قال في نفسه: ويلي ستظهر الجنية بخلقتها الحقيقية، يا الله أُلطف بحالي...أُلطف بحالي.!

-هل أنت مستعد أيها العاشق الولهان؟.

سألته الملكة، ولكن بماذا يجيبها، فقد قررت وستنفذ، ليس أمامه سوى الامتثال والتعايش، فليس هناك ثمة مفر.!

-سأدخل عليك الآن من الطرقة المظلمة، هل أنت موافق؟.

تململ، تلعثم، نطق:

-موافق!

دخلت الجنية عليه من المدخل المظلم وكأنها كتلة انفصلت عن ظلام المدخل؛ مخلوقة سوداء قصيرة اقتربت منه؛ جفل من موضعه رعباً، قفز إلى نهاية الغرفة؛ أغمض عينيه،

دفن رأسه في حجره، وتكور على نفسه بركنٍ من الأركان يرتجف بشدة، ويهذي بشدة.!

لم يدر بخلده؛ أن الجميلة التي رآها ليلتئذ في كامل زينتها، حقيقتها بتلك البشاعة؛ تشبه الغوريلا بكثافة الشعر الطويل الذي انتشر على جسمها، ورأسها الضخم، وشعرها المنكوش المشعث، وأذناها الكبيرتان، وعيناها الجاحظتان، وحدقاتهما اللتان كحدقتا الأفعى تشعان رعب، وأنفها المفلطح بفتحتان واسعتان، وذاك الزغب تحت أنفها، وفمها الواسع البارز قليلاً عن وجهها، وأنيابها الطويلة البارزة من فمها، وثدياها الطويلان المتدليان كالقردة، وعرفها الأحمر الذي يشبه عرف الديك فوق رأسها، وذراعيها الطويلان، وأصابع يديها التى تنتهي بأظافر كأظافر القطط، وأصابع رجليها التى تنتهي بمخالب كمخالب الصقور، ورائحتها النتنة التى لا تطاق، وقِصر قامتها المفزع، تساءل في نفسه: أين النهدان الذان كادا ينفجران من ارتجاجهما؟ أين الجمال والرقة؟ أكل ذلك وهم؟.

اقتربت منه وضحكاتها تثير خفقات قلبه؛ وجدته يرتجف؛ صمتت، جلست على السرير وهو قدامها، قالت بامتعاض:

-أنا آسفة ...لقد فهمتُ الإجابة من ردة فعلك هذه؛ أنا دميمة بالنسبة لك كبشري، أنتم أجمل منا بكثير، أعرف وأعترف.. . ربما لذلك نحقد عليكم!

قالتها وعادت لضحكاتها، لكن ياسين مايزال متكوراً بركنه بالغرفة؛ دافناً رأسه بحجره يرتجف .!

أطرقت الملكة فينة ثم قالت:

-نحن باستطاعتنا التجسد في هيئة أي مخلوق جميل أو قبيح، لكن حقيقتنا كما رأيت - ثم صمتت - عمري ثلاثة آلاف سنة وتبقى لي مثلهم وأكثر، وأنا قوية جداً، وتحت إمرتي قبائل كثيرة قوية - ثم مستطردة - تعرف لو أنك أحببتني بصدق لحققتُ لك كل أمنياتك وأحلامك؛ كل ما تمنيت وما تتمنى؛ أستطيع في دقائق أن أنقلك إلى أي مكان في العالم، أستطيع في دقائق أن أفتح لك كنوز الأرض المرصودة، أستطيع في دقائق أن أجعلك تمشي بين الناس مختفياً عن أبصارهم، أستطيع في دقائق أن أهبك القوة الخارقة فيخضع الجميع لك - ثم زفرت بضيق - صدقني كل ما تحلم به البشرية من قوى خارقة أستطيع أن أجعلها مِلك يمينك.!

أفاق ياسين قليلاً، قال بصوت متهدج دونما تململ:

-لا أريد قواكِ الخارقة !فقط أريد العودة إلى أهلي وحبيبتي... صدقيني هذه كل أحلامي، وكل أمنياتي.!

-أليس هناك ثمة أمل في أن تحبني؟.

لم يجب، فأضافت في خذي:

-حسناً؛ لقد فهمت - ثم أدمعت عينيها دموعاً حمراء - غريب أنت أيها البشري؛ تفضل حبيبتك الإنسية عن ملكة من الجن ستهبك القوة والملك، تفضل أن تحب ضعيفة نكَّارة للجميل مع أول هفوة منك تنسى كل جميل فعلته معها ولا تتذكر لك سوى تلك الهفوة، تفضل من تذيقك شتى ألوان الآلام والعذاب عن قوية طائعة ستهبك كل وقتها وخيرها!.

بحنق دون أن يرفع وجهه قال:

- عمركِ ثلاثة آلاف سنة وتبقى لكِ مثلهم وأكثر، بكم ستضحين من أجل القضاء علي وعلى قوتي وصحتي وإنسانيتي؟ أربعين سنة، وبعد موتي؛ تضحين للمئات من بعدي حتى تحن نهايتك بعد آلاف السنين... يبدوا أنكِ سخية في حبكِ لأبعد الحدود... دعكِ من هذا الهراء؟.

طأطأت رأسها خجلاً، بدأت تتجسد إلى الهيئة البشرية التي رآها بها ليلتئذ بالقبو؛ مرتدية قميص نوم أسود قصير، ضيق يكاد نهديها المنتفخين ينفجران منه، وشعرها الأحمر منسدل على كتفيها العاريين لا يتعدى خصرها..

-قم لا تخف !لقد لبست القناع البشري الذي تفضله؟ انهض سأشعل لك سيجارة؟.

رفع ياسين رأسه ببطء وحذر؛ وجدها ممسكة بسيجارة مشتعلة، انتصب وأخذها منها في هدوء، لم يأبه لقناعها البشري الجميل؛ عاد وجلس على الكرسي، قالت:

-كنت قد أتيتك بخبر سيفزعك فزعة أشد من التي أفزعتها لك منذ قليل؟.

-لا أعتقد أن هناك أفظع منها، فقلبي مايزال يرتجف، لا تحاولِ ؟.

أطرقت رأسها، قالت:

- سامحك الله!.

- الله... أتؤمنين بوجود الله؟.

ـ أنا لا أؤمن إلا بقوتي!.

ـ فوق كل ذي قوة قوي!.

ـ دعك من هذا الهراء؟.

نهضت ودلفت صوبه تتهادى الخطى، وقفت خلف الكرسي، ومالت إلى أذنه توشوشه:

-الليلة عُرس حبيبتك ...دعاء!

انتفض ياسين واقفاً، اِمتقع وجهه، بدا أنه غير مصدق؛ أشار بسبابته صوبها محذراً، ازدرد ريقه، قال:

-أنت شيطانة كاذبة، تتمنين أن أكرهها وأصدق ترهاتكِ وهذيانكِ؟.

تركته وعادت لتجلس على حافة السرير تداعب خصلات شعرها وتتأمل فخذيها، ثم التفتت إليه، قالت بفحيح كالأفعى:

-لن تتوقع من هو العريس الذي حل محلك!

انهد جالساً على الكرسي، أشاح بيده، قال بلهجة من لا يبالي:

-أكملي كذبتكِ وتلفيقكِ وقولي أنه صديقي عامر لأكرهه هو الآخر ؟.

قالها على مضض، ضحكت فارتج نهديها، قالت:

-كيف قرأت مابرأسي؟ هل عِندك الحاسة السابعة أم عندك خادم من الجن يتجسس على أفكاري؟.

وقف ياسين حانقاً، التفت إليها، مد سبابته صوبها محذراً، قال بصوت مرتفع غاضب:

-أقسم لكِ؛ لو أن هذا ما حدث بالفعل لأضاجعنكِ على هذا السرير، وبهيأتكِ الحقيقية؟.

7

بعد صلاة العشاء؛ تحت عشرات من عناقيد المصابيح المضاءة والمختلفة الألوان؛ بدأ دق الطبل والمزمار في سرادق كبير نُصب بأكبر ساحة بالقرية..

يتراقص فرس يمتطيه رجل بجلباب وسط الساحة على دقات الطبل بانسيابية وإتقان، ومن حوله الشباب والأطفال مصفقين.

بعيداً عن الساحة يطلق الرجال النار من بندقياتهم ومسدساتهم لأعلى فرحين ومهنئين .تزدان الرجال بجلابيبها وقفاطينها وملاحفها وعباءاتها النظيفة، ويجلسون بالساحة في حلقات فوق المفارش والحصير يتضاحكون ويتسامرون، وآخرون جالسون على الكراسي المعدنية يتحلقون منضدات خشبية؛ وتدور عليهم الغلمان بالدخان والكيف وجمرات الفحم للنرجيلة، وغلمان آخرون يدورون بالشاي والماء

وأطباق الفاكهة، ويدور بائع البيرة بصندوقه يوزع للحضور وابتسامته لا تفارقه.!

ظهر العريس في جلبابه الأبيض الجديد، وعمامته البيضاء الملفوفة بحذق، وشاله الأزرق يلف رقبته، وحذاءه الأسود اللامع يحتضن قدميه. رفع يده محيياً الضيوف، وابتسامة واسعة احتلت تقاسيم وجهه.

-مبارك عليك دعاء يا خائن؟!

جاء الصوت من الخلف، التفت عامر، قال ممتعضاً:

-بارك الله فيك يا مصطفى ولكن لاداعِ لأي مزاح فليس هذا وقته يا صديقي!

اقترب مصطفى منه، أشاح بيده، قال:

-بالطبع فأنت بالغد ستقتل حلم صديقك العزيز ..قاطعه عامر مبتسماً، قال:

-تعال جانباً لنتلافىٰ سوء الفهم؟.

أخذا كرسيان، ومشيا بعيداً عن العرس، جلسا وخلفهما الساحة بأضوائها الساطعة.

أطرق مصطفى رأسه وصمت، قال عامر:

-تزوجتها لاحافظن عليها لأجل صديقي؛ لربما طالت غيبته، وكي لا يتزوجنها غريب!

ضحك مصطفى، ثم قال بصوت مهدود:

-ما صدمني حقاً هو كيف وافقت دعاء، وكيف وافق أبوها ؟.

-النصيب يا صديقي!

-بل إنها كتب السِحر يا صديقي، مؤكد أنك سحرت لهما - ثم عبس وجهه - مصدوم أنا من نذالتك، جد مصدوم صدقني!

وقف عامر ممتعضاً وأخرج علبة سجائره، ومد له لفافة محشوة بمخدر الحشيشة، قال:

-خذ هذه يا صديقي، وعندها ستزول آثار الصدمة سريعاً؟.

أخذها مصطفى بوجه ممتقع وسادر من تحول عامر المفاجيء.!

تركه عامر ودخل إلى العرس، تساءل مصطفى في نفسه : كيف يتحول عامر بهذه السرعة إلى شره؟ كيف يطمع في حليلة صديقه؟ ياسين أعز أصدقائه، توأمه !مؤكد هي كتب

السِحر التي غيرته، ربما مسَّه جان، أو جُنّ في عقله ـ ثم تأمل السيجارة ـ سأحاول شرب هذه السيجارة ربما أنسى بالفعل كم غدارة هي تلك الدنيا.!

****

وقف الحاج صالح بالفناء في جلبابه الأزرق الجديد، وعمامته البيضاء الناصعة، مرت النسوة من جواره داخلات الدار يزغردن ويهللن ويهنئن، قال لإحداهن:

-قولي لأم دعاء أني أريدها بالخارج؟.

بعد لحظات خرجت زوجته إليه؛ ترفل في عباءة سوداء حريرية، موشاة بكلفة مذهبة. جلسا على دكة في ركن بفناء البيت بعيدة عن ازدحام النسوة بالداخل وبالمدخل .

في إضاءة واهنة؛ أطرق صالح رأسه؛ نظرت له زوجته بدهشة، قالت:

-هل استدعيتني وجعلتني أترك العروس والنسوة كي تصمت؟!

رفع رأسه؛ قال بحزن عميق:

-ماذا فعلنا بدعاء ـ بنتنا الوحيدة ـ يا أم دعاء؟.

-وهل فعلنا خطيئة لاسمح الله؟ ستتزوج كأي فتاة على سنة الله ورسوله.!

-وياسين؟ ياسين الذي ضحى بحياته من أجلها.!

-ها أنت قلتها ...ضحى بحياته بمعنى أنه لم يعد ضمن الأحياء، وإن شاء الله في ميزان حسناته، وأنت سيد العارفين بأن" الحي أبقى من الميت "فهل كنت ستتركها فريسة للعنوسة بانتظار من لن يأتي؟.

-لهجتكِ تخيفني!

-لا تخشَ شيئاً يا أبا دعاء؟ مادامت البنت قد وافقت فهو الخير إن شاء الله.!

-يا عمة أين أنت؟ هل هذا وقت حب مع عمي صالح؟.

قالتها فتاة من بعيد ثم ضحكت؛ قامت الأم، وربَّتت على كتف زوجها، قالت:

-خلِها على الله؟ سأذهب لأتفقد الحضور.

شرد الحاج صالح لحظات، تمتم:

-لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم!

***

بدت دعاء جالسة على كرسي وحيد في باحة الدار؛ مرتدية عباءة ملونة بالورود و مطرزة بالخرز ومحلاة بالكلفة، وشعرها الناعم منسدل فوق كتفيها، وتتحلقها الفتيات والنسوة؛ جالسات فوق البسط.

تتربع إحداهن واضعة الطبلة مابين فخذها وإبطها، وتدق عليها بحماس مرددة الأهازيج، وتتراقص بعض الفتيات من حولها بثيابهن الجديدة الملونة، وبعضهن يتضاحكن ويتسامرن والبعض يصفقن ويتابعن من يرقصن، وفتيات أخريات يدُرن على الحضور بصينيات رصت عليها أكواب الشربات..

وقف ياسين مستقبلاً دعاء؛ يتأململها، رآها تبتسم؛ لم يصدق، خالجته التساؤلات: كيف خانتي؟ كيف خانني صديقي؟ كيف حدث كل هذا؟ لماذا لم تنتظر؟ ألم يفهمهم الشيخ طايل؟ هل اعتقدَت أنني مت؟ هل تناست حبنا؟ هل أعلموها بتضحيتي من أجلها ورغم ذلك لم تكترث وتزوجت صديقي؟ وكيف

لعامر أن يفعلها؟ كيف يطعنني في ظهري؟ يا لحماقة البشر ! ما عدتُ أفهم شيئاً!.

دخلت امرأة متشحة بالأزرق إلى باحة المنزل تحمل فوق يدها طست الحناء؛ مغروس بها عدة شمعمات مشتعلات؛ مزغردة مهللة، دمدم ياسين:

-إذاً مبارك عليك يابنة العم، دامكِ سعيدة فذلك جل ما أتمناه لكِ!

اقتربت حاملة الحناء من ياسين، نظر لها ياسين، ولكنها واصلت طريقها من خلاله، وكأنه شبح أو روح بلا جسد، حتى دعاء لا تشعر بوجوده؛ تعجب ياسين وتذكر أن الجنية أخفته بسحرها، ونقلته في لحظات دون أن يشعر إلى العُرس ليرى بأم عينه زواج حبيبته !وليتأكد من صدق ماقالته له عن نسيان "دعاء" له، تمتم بغصة في حلقه:

-الآن فقط تسنى لي التأكد من غدر ونذالة البشر ...وصدق الجنية!

فجأة؛ نظرت له دعاء مندهشة وكأنها رأته، وقالت بصوت مسموع:

-ياسين! ؟.

****

أفاق ياسين بغرفته الصخرية فوق سريره؛ جلس يستجمع قواه، شعر بخَدَر في كامل جسمه، نظر حوله، قال بوجع:

-لقد رأتني، ونادت علي ...كيف حدث ذلك؟!

-لا تأبه ياحبيبي؟ غلطة مطبعية !.

قالتها الملكة ضاحكة، ثم دخلت عليه في هيئتها البشرية؛ ترتدي منامة حريرية بيضاء ضيقة، وبأكمام، وقد عقصت شعرها الناعم إلى الخلف؛ تحمل على يديها صينية عليها أطباق طعام .

نظر لها ثم طأطأ رأسه، جلس متربعاً؛ ابتسمَتْ واقتربَتْ ثم وضعت الصينية أمامه، نظر للطعام بتأفف، قالت:

-هذا طعام بشر لا تخشَ شيئاً؟ أرز ولحم وخضار مطهي هيا تناول الملعقة والتهم كل ما أمامك ؟.

مسك ياسين الملعقة، تأملها فوجدها نحاسية ضخمة، تأمل الطعام، قال:

-ليس عندي شهية!

كانت منتصبةً بجوار السرير؛ زفرت ضجرة، قالت:

-لابد أن تتغذى - ثم بمياعة - أم نسيت وعدك لي؟.

نظر لها متفحصاً جمالها الزائف، وهي منتصبة أمامه تبتسم، قال:

-لم أنسَ وعدي !وحيث أنه كذلك فسآكل القليل وأشكركِ مقدماً على ذلك الطعام الشهي!.

مسك الملعقة وبدأ بتناول الطعام شارداً في كل ما رأى بالعرس؛ تأكد بنفسه أن دعاء قد تزوجت، وممن؟ من أعز أصدقائه، لم تنتظره؛ دعاء التي دافع عنها أمام الجنية لما قالت له، أنها لن تنتظره، هاهي الجنية الآن قد صدق كلامها وانتصرت عليه، وياسين انتهى بكل معاني الكلمة.!

كان يتمنى أن يرى عامر ساعتها، لكن شروط الجنية كانت مجحفة؛ دعاء فقط هي المسموح أن يراها، أما الآن فعليه أن يفي بوعده، وليكن الآدمي الوحيد الوفي بين البشر.!

قلبه يرتجف، يتساءل في نفسه: كيف سأضاجعها بهيئتها الحقيقية؟

وراحت تدور برأسه كل الأحداث السابقة، ويقرر: وليكن ما يكن؛ سأفي بوعدي، ولم يعد هنالك شيء أخشى عليه.!

انتهى من الطعام، حمل الصينية ووضعها على منضدة بجانب السرير؛ مسح يديه بمنديل أبيض بجواره.

ضحكت الملكة وهي تراقبه سادراً، وكأنها تقرأ أفكاره، وتعرف حيرته، وتعرف قراره.

همَّت بخلع ثيابها، قال ياسين بإصرار وتجهم:

-خلقتكِ الحقيقية من فضلكِ؟ هكذا كان وعدي لكِ .!

تعجبت من شجاعته، تمنت لو أن دعاء قد تزوجت مذ أن حصلت عليه، يالفرحة قلبها الذي يرفرف؛ أخيراً خضع الآدمي الضجر وانتصر حب الجان، وانتهت أسطورة ياسين ودعاء، وستبدأ الليلة أُسطورة جديدة؛ ملكة من الجن، و آدمي جميل..

استلقت الجنية على السرير، وقف ياسين بجانب السرير، خلع جميع ثيابه، وانتصب عارياً؛ تأمَلَت الجنية جسده المنحوت بشبق، وأعجبتها فحولته..

فجأة؛ بدأت بالعودة لحقيقتها، ظل ياسين محملقاً لها دون أن يهتز له رمش؛ شعر بقسوة غريبة في قلبه، شعر بأنه حلم وسينتهي قريباً، ربما كان بالحب ضعيفاً، والآن أصبح قوياَ؛ ولكن؛ كيف يتحول الإنسان إلى الضد بين ليلة وضحاها؟ كيف ينسى سني العشق؟ لم يعد يهتم بذلك كله، كل اهتمامه منصب الآن على الإيفاء بوعده!.

اِنقَض عليها، شدَّ الملاءة فوقهما، جامعها كالمُغيب..

لما فرغ؛ جلس ونصفه السفلي مدفون تحت الملاءة، أشعل سيجارة، بدت علامات السعادة على تقاسيم وجه الجنية القبيحة المدثرة بالملاءة جواره.

فجأة؛ ألقى بالسيجارة بعيداً، تذكر شيئاً.

-تجسدي في شكل دعاء؟ .

أمرها فابتسمت وفي دقيقة أصبحت هي دعاء حبيبته وعارية تحت الملاءة، اعتلاها، اقترب من شفتيها؛ أغمضَت

عينيها؛ توقف، رفع رأسه، شرد في شيء ما، فتحت الجنية عينيها، سألته:

-مابك يا حبيبي؟.

-لا شيء... لاشيء يا جميلتي!.

-إذا دعنا نستمتع ببعضنا بعضاً؟.

8

بالهزيع الثاني من ليل القرية؛ طُرق الباب، نهضت أم ياسين؛ دلفت صوب الباب متثاقلة الخطوات، أضاءت المصباح، فبدت متشحة بالسواد، شاحبة الوجه، تمتمت:

-يارب. ..ليتك تكون أنت يا حبيب أمك وقد عدت؟!.

فتحت الباب؛ شهقت عندما وجدتْ ياسين أمامها؛ شاحب الوجه، ملتف بملاءة بيضاء؛ يرتجف بشدة، ويبكي، اختطفته أمه سريعاً بأحضانها ولاذت بالنحيب..

****

أشرقَت الشمس على القرية؛ بدت البيوت كقبور راقدة بين ضباب الحقول. طُرِقت بوابة دار الحاج صالح؛ دلف إلى الفناء متثاقل الخطى؛ فتح البوابة؛ وجد عامر أمامه يبتسم، قال:

-خير يا عامر؟.

-كل الخير ياعم صالح؛ لن نقيم العرس اليوم، وهيا بنا نذهب لنسلم على ياسين؟ .

شهق الحاج صالح ثم صرخ بسعادة غامرة، قال:

-ياسين ابن أخي حي وعاد!

****

"أنا بخير يا أمي صدقيني، ولكن دعيني أنم، أنم فحسب؟. "

قالها ياسين لأمه لمَّا حاولت معرفة ما جرى له طوال الأيام المنقضية، ولكنه دخل غرفته؛ لبس ثوباً، وطرح جسمه على السرير، وتدثر باللحاف.

ظل يتقلب سادراً الفكر على جنبيه، ولم ينم حتى الصباح..

صدحت طرقات متتالية على باب الدار؛ نهض ياسين؛ قفز أرضاً، ركض صوب الباب، صاح:

-من بالخارج؟.

قيل:

-أنا عامر!

استشاط ياسين غضباً، قال:

ـ سأقتُلك يا عامر؟.

عاد أدراجه سريعاً، دخل غرفته؛ فتح الصوان، وفتح حقيبة بداخله، أخرج بندقيته الكلاشنكوف؛ شهقَت أمه المنتصبة على الباب بعد أن استيقظت، ولمَّا رأته خارجاً من غرفته ممسكاً بها والشرر يقدح من عينيه، صاحت به:

-يابني أتقتُل صديقك وأخاك؟ مهما حدث فهو صديقك وضيفك!.

وقفَتْ أمامه، تفلت منها؛ فرقع الأجزاء، فتح الباب؛ وجد عامر أمامه فاتح ذراعيه، صوب البندقية إلى وجهه؛ قطب وجه عامر، قال:

-أهذا جزائي على فعل الخير يا صديقي؟.

صرخ ياسين:

-أي خير يا عامر؟ زواجك من دعاء ليس خير ياصديقي بل خيانة.!

برز الحاج صالح أمام فوهة البندقية، جلست أم ياسين على الكنبة تبكي، قال الحاج صالح:

-عامر لم ولن يتزوج دعاء!

قال ياسين ضجراً:

-لقد شاهدتُ ليلة الحناء بالأمس بأم عيني!

-يابني كانت خُدعة !حتى أنا ودعاء وأمك وكل أهل القرية؛ خدعنا عامر من أجل إنقاذك من براثن الجنية، ولم يعترف لي بالحقيقة إلا منذ قليل، بعدما تأكد من عودتك!.

صمت ياسين، تصبب عرقاً، تأملهم مندهشاً؛ عاد أدراجه، دخلا خلفه، وأغلقوا الباب .

أعطى ياسين البندقية لأمه:

-أعيديها مكانها؟ .

نهضَت لتعيدها، فتح عامر ذراعيه، ابتسم، قال:

-سأشرح لك ولكن تعال بحضن صديقك الآن؟ .

فارتمى ياسين بحضنه وسالت دموعه، قال بتهدج:

-لقد قتلتُ الجنية يا عامر ...لقد أرحت البشر من شرورها.!

-أعرف ياصديقي، ولكني اشتقتُ إليك كثيراً؟.

ثم سلم على عمه واحتضنه طويلاً، ثم ذهبت أمه لتعد الشاي، وجلسوا جميعاً على الكنب بباحة الدار.

أخرج عامر علبة سجائره، أعطى الحاج صالح سيجارة وياسين سيجارة، وأشعل أخرى، وبعدما أتى الشاي؛ عادت أم ياسين إلى غرفتها، وبدا على ياسين شغف وتعطش لمعرفة ماحدث..

نفخ عامر دخانه، ارتشف من كوب الشاي، وأعاده إلى المنضدة أمامه، قال:

-وقع تحت يداي كتاب السحر الأسود، كتاب عمره آلاف السنين، كان لدى الشيخ طايل - رحمه ا لله - وقد مات بمجرد حصولي على هذا الكتاب ...قاطعه ياسين، قال:

-مات الشيخ! رحمه الله... ولكن هل لموته علاقة بحصولك على الكتاب؟.

-بلى... هو السبب؛ هذا الكتاب غريب يا جماعة؛ إذا ما تمناه شخص بصدق يقتل صاحبه ويذهب لمن يتمناه!

عبستْ وجوههم، قال ياسين بغضب:

-إذا فهو خطر عليك ياصديقي ولابد أن نتخلص منه؟.

قال الحاج صالح:

-خائف عليك ياعامر! ولابد فعلاً أن ننظر طريقة للتخلص منه؟.

ازدرد عامر ريقه، أكمل:

-لا تخشوا شيئاً؟ خيراً إن شاء الله - ثم مستدركاً - المهم؛ حدث ما حدث وفتحتُ الكتاب فوجدتُ العنوان" حصن نفسك "فقرأت القسم الذي يليه، ووكلتُ خدامه، وقالت لي خادمة الكتاب :الآن أصبحت آمناً من عين الإنس والجن، ولا أحد يستطيع الاقتراب منك، أو معرفة ما تفكر به.

وقتذاك؛ طلبتُ من الخادمة أن أعرف معلومات عن ياسين والجنية، ومن وقتئذ؛ أصبحتُ أتابع ياسين من بعيد دون أن تدري الجنية.!

فكرتُ في أن ألهيها وأطفي تمويهاً على خطتي لاستعادة ياسين، وأتتني فكرة زواجي من" دعاء "وكانت فكرة صائبة؛ حيث جعلتُ الملكة تتوقف عن مراقبتي ومراقبة دار العم صالح؛ لأنها تريد أن تظفر بعشيقها ياسين فقط، وتريد أن تجعله يحبها بمحض إرادته، ولأنها متأكدة بأن ياسين لو عرف أن دعاء قد تزوجت فسيتغير ولكن لصالحها هي!.

كنت متأكداً أن دعاء سترفض وعمي سيرفض؛ هذا أمر منتهِ، لذا وقعتُ في حيرة من أمري؛ لا أنا قادر على أن أكشف لهم الحقيقة، ولا أنا قادر على التنازل عن خطة الاستعادة، لذا سحرتهم جميعاً بتعويذة من الكتاب، كان اِسمها " الطاعة العمياء "وهي تجبر أي مخلوق على طاعتك في أي شيء تقرره، حتى لو أمرته بأن يقتل نفسه؛ سيفعل وعلى وجهه ابتسامة بلهاء.

قالت لي خادمة الكتاب :أن الملكة سترسل ياسين ليشاهد دعاء في ليلة الحناء.

فسارعتُ بزرع عشرات من جن الكتاب، وجعلت دعاء تتخيلك لثوان، عندها اندهشت أنت ومن معك من خدام

الملكة، وفي هذه اللحظة تم تبديل خدام الملكة من الجن بخدام من جن الكتاب؛ أقوياء وقادرون على التخفي والتشكل على هيئة أي فصيلة من الجن، واختطفنا خدامها.

ونجحتْ عملية التبديل، وعدتَ يا ياسين إلى الكهف، وحدث ماحدث بينك وبينها، ولكنك كنت تشعر بقسوة قلب غريبة أليس كذلك؟.

-بلى!

-أحد خدامنا تلبسك لحظتها، وفجأة جاءتك فكرة قتلها حينما تذكرت كلام الشيخ طايل لك، قالت الجنية:

-مابك ياحبيبي؟

قلت أنت لها:

-لاشيء ...لا شيء ياجميلتي!.

حينئذ؛ أمرتها بأن تضع ذراعيها تحت ظهرها، وتحججت بأنك تريد بذلك أن تستمتع بها لا أكثر وفعلت .

عندها قبضت بيدك على الملعقة، ورشقتها برقبتها عدة رشقات متتالية بسرعة فائقة؛ كان جسمها كالملبن وقتئذ،

فانغرست الملعقة بسهولة، وبعدها وجدتها تتفحم وتتحول لدخان أسود!.

وقفت مذهولا؛ شعرتَ بالخوف، وتعجبت كيف واتتك الشجاعة لتقتل الملكة... الحقيقة أن خدام كتاب السحر الأسود ساعدوك أيضاً، وبعد لحظات؛ فقدت وعيك وأغشي عليك، ولمَّا أفقت وجدت نفسك ملقى على طريقاً بأطراف القرية؛ فقد تلبسك خدام الكتاب، وطاروا بك وشقوا الجبل وأخرجوك .

أما عن دعاء؛ فلم أتزوجها كما قال لك العم صالح، أقمنا ليلة الحناء فقط، وسنشرح للناس تفسير ما حدث اليوم، وعلى كل حال؛ حمداً لله على سلامتك ياصديقي..

قال الحاج صالح:

- لابد من زواجكما قريباً، لن ننتظر حتى تكمل جامعتك، ها ما رأيك يا ياسين؟.

ابتسم ياسين، وانفجرت زغرودة أمه من الداخل..

9

أطلقتْ أم ياسين زغرودة أثناء صعودها على السلم إلى الطابق الثاني، ومن خلفها أم دعاء وبعض قريباتها متشحات بالعباءات الزرقاء الفضفاضة؛ يحملن فوق رؤوسهن قفف مشحونة ومغطاة بأقمشة بيضاء..

توقفت أم ياسين أمام باب شقة الطابق الثاني؛ فتحت دعاء، وكانت ترتدي منامة حريرية حمراء؛ فبدت مُحمرة الوجه، موردة الخدان، تحتل وجهها ابتسامة رائقة..

زغردن النسوة، وصاحت أم دعاء:

-صباحية بيضاء ياحبيبتي أين ياسين؟.

أنزلت القفة من فوق رأسها بعد أن دخلت، وأردفتها أم ياسين، ودخلن جميعهن خلفها، وأنزلن حمولاتهن مبتسمات..

احتضنت الأم ابنتها، وراحت تقبلها من خديها بنهم، وهي تردد:

-طمئنيني عليك يا حبيبتي؟.

****

بالصباح الباكر؛ وقف ياسين في جلباب أبيض بالشرفة مشعلاً سيجارة؛ متأملاً البيوت الراقدة بين الحقول مثل الفئران النافقة.

شعر بوقع أقدام يقترب من خلفه؛ استدار سريعاً؛ اطلقت العنان لضحكاتها الرقراقة؛ عاد ليتأمل الحقول؛ بدتْ دعاء مرتدية قميص نوم أسود طويل، وشعرها متهدل على كتفيها، احتضنته من الخلف، وطوقته بذراعيها، والتحما نهديها بظهره بنعومة جعلته يُغمضُ عينيه منتشياً، وصمتت لحظات ثم قالت بغنج:

-ليتني أمتلكُ كتاب السِحر الأسود ذاك؛ لكنت طلبتُ منه البساط السحري، وامتطيناه أنا وأنت فقط؛ وتجولنا بالعالم أجمع؛ نجمع شتى أنواع الورود، وأقبِّلك في كل بلد قُبّلة؟.

ضحك ياسين، قال:

-آمل أن تكون أمنيتكِ تلك مجرد مزحة؛ حتى لا يأتكِ الكتاب بالفعل ويموت عامر صديقي، وأندم أني حكيتُ لكِ عن سره!

امتعضت، تراجعت إلى الخلف، قالت بسخط:

-أنت تعرف جيداً أن حبي لك حقيقة وليس بمزحة يا ياسين!

دق هاتف ياسين؛ أحضرته دعاء سريعاً وأعطته له، ثم عادت لغرفة النوم عابسة..

نظر ياسين بالشاشة؛ وجده عامر، فتح الخط، قال:

-صباح الخير صديقي العزيز؟.

ردت عليه أم عامر ساخطة، قالت:

-عامر يا ياسين !

وصمتت، انتاب القلق ملامح ياسين، قال:

-ماله عامر يا خالتي! ؟.

فجأة؛ صرخَتْ دعاء بغرفة النوم، ارتجف قلب ياسين، ركض إلى غرفة النوم؛ وجد دعاء منتصبةً مفزوعة أمام كتاب ضخم غريب مُسجى فوق السرير..

تذكر المكالمة، وضع الهاتف على أذنه؛ أنصت لأم عامر وهي تقول بصوت متهدج من النحيب:

... -وبعدما فتحتُ غرفة نوم عامر منذ لحظات؛ وجدتُ عقارباً غريبة الشكل كثيرة، منتشرة بالغرفة وسرعان ما اختفت، شهقت وارتجفت، ولما رفعت الغطاء عن عامر؛ وجدته جاحظ العينين، أزرق الوجه، مضرج بالدماء من لسعات العقارب، ولما جسسته تأكدت بأنه مات! مات يا ياسين... صاحبك مات!.

عندها وقع الهاتف من يده، وسمع صوتاً اقشعر جسده منه، يهمس في أذنه قائلاً:

- قديماً بذاك الكابوس؛ نجتْكَ أمك مني، وبالكهف منعتني عنك أمي - الملكة - ونجتك أيضاً، وبالنهاية قابلت الحب بالخيانة - التى هي من شيمكم - وقتلتها...

لذا لن ينجيك مني هذه المرة مخلوق أيها الآدمي الخائن؟..

... تمت بحمد الله..

شعر بوقع أقدام يقترب من خلفه؛ استدار سريعاً؛ اطلقت العنان لضحكاتها الرقراقة؛ عاد ليتأمل الحقول؛ بدثْ دعاء مرتدية قميص نوم أسود طويل، وشعرها متهدل على كتفيها، احتضنته من الخلف، وطوقته بذراعيها، والتحما نهديها بظهره بنعومة جعلته يُغمضُ عينيه منتشياً